زهير أبو سعد

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author Zohir Abu Saad.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الكاتب زهير أبو سعد.

عنوان الكتاب: يمّة
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
مقدمة: شروق المسالخي

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7478
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

يمّة

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: يمّة

(يمة) كلمة ثلاثية الحروف ألفية المعنى، أختصر فيها جمال جميع نساء الأرض، تسكن فينا شوق جارح وحنين فاضح يا له من وجع، يا ويح الفراق من مرض نعاني منه عند أول وعكة فقد حتى يمتلك جميع الجسد ويترعرع في وسط القلب.

مؤلمة هي واقعية الأحداث، وبشعة جدا الحياة عندما تخلع قناع الجمال وترينا وجه الموت بملامحه القذرة وعيناه الجاحظة التي لا تصب نظرها إلا على من نحب، أو على من علمونا الحب وسبب هوان قلوبنا عليهم...... نتوسل إليه، نخر بدموعنا أمامه أرجوك أنظر الينا نحن، أحتضنا قبلهم لا تفجعنا بهم، فحضن القبور علينا أسهل بكثير من أسرة الفقد وظلام التراب أبرد من ليهيب الشوق. فبعد رحيل الأمهات تهدم بنية البنوة وتصبح كهلة رغم رقم أعوامها المعدودة على أصابع اليد، ويعتري تلك الاعوام يتم يجلد بسياطه عقوبة مبرحة على ما اقترفناه من بر لأولئك الملكات المجبولات بالطهر كتلك الملكة

(حنين، يمة، النور .... اي الهيام)

بطلة هذا الورق الأبيض الذي سكب عليه دمع ذاكرة لكاتب جبل حبره بعبق عطرها، وحمل في جيبه حفنة من حروف اليتم، يحيك فيها حكاية روح سكنت قلبه ولا تزال حية لو سكنت سابع أرض.

فبقانون العاشقين قاعدة تقول: (أيها الموت أنت كفيل بأخذ الاجساد منا، أما تلك الأرواح خالدة مخلدة في قلوبنا

هل يا ترى فيض المشاعر أو تفشيها على أوراق الزمن يبرأ ما فيه من ألم أم أنه يزيد طين الذاكرة بللآ؟......

ها هو النسيان يجلس على أعتاب باب الكاتب ويقول له تحصن بالماضي جيدا وانفث على روحك تعويذات مني، أنت يا صديقي لست في حرب مع الموت بل معي ومع الذاكرة ومع لبك المسروق منه الفرح منذ أن سرق غسق الصبح وجه تلك التي سميتها يمة.....لروح السيدة هيام الرحمة، وأسكنها الله فسيح جنانه

شروق المسالخي

إهداء

{ إلى النور المُغبر بتُراب القُبور، تلك الحبيبة التي

كان يُطلق عليها ملكة الدار، إلى يُمّة }

يمّة..

صفة تطلقها على أنثى حملت بك سبعة أشهر ونيف، أو تسعة أشهر وبضع ساعات، أنثى منسلخة من فصول السنة، إنها وحدها سنة بحد ذاتها، لها فصولها الخاصة بها، وكل فصل بحاجة إلى ديوان من شعر أسباني، شعر لا يفهم مداه إلا من قطع المدى، أحرفه خريفية كموسيقى غابات ساجانواليابانية..

لا تنهك قلبك في سرد الرواية تلك الأنواع من الإناث لا يحاجنّ إلى كلمات كي يتمم ما بهنّ من نقصن، أنت وأقلامك وأوراقك وكلماتك كلها نقص، هي كاملة حتى لوالتهمتها فوهات الذاكرة..

فأنت قطعة من ذرة تتلظى على شباك الذاكرة وجمر الماضي، لا تريد العودة إلى البداية كي لا تتأذى، أن تتأذى وأنت لا زلت في الصفحة الأولى من كتابة يمّة أرحم بكثير من أتموت شوقا وقد قطعت من الذاكرة عتيا، لن تنجوحتى لوجعلت من أسمها كعبة يطوف حول مقامها أهل العشق وأرباب الهوى..

سيجف حبرك عندما تكتشف بأن ما تبحث عنه من أهل العشق وأرباب الهوى هم هي بكافة صفاتها التي فقدتها أولعلها تخلت عنك، في الحقيقة إن هذا النوع من العشق معقود بالقلب والوجد، إنه جيش من الحس المغلف بالراحة، تستلذ بمذاقه وعبق وجوده كلما دارت الروح حول مقامها كيمامة تحلق فوق منارة يرفع

بها صوت الحق أن حيّ على الحب يا أهل العشق، ستعرف بأنك عاشقا من طراز عال المستوى يا يمامة الحلول..

إنها فلسفة الشوق التي لا ترحم، فلسفة أكره أن أكتبها لأنها في قمة الحقارة عندما تجردني من سعادتي وتهمس في أذني أنها بجانبي وهي معي تسمع وترى، لا أكره الشوق لأنه يأتيني بها بل أكره مخالبه المسنونة التي تشبه مخالب دب قطبي مستعرا جوعا يريد تمزيق جلدي وتهميش لحمي وتقطيعي كلحم كباب قبل حفل شواء، أكره تلك مخالب الشوق عندما تدغدغ طبلة قلبي حيث تمرر بمخالبها على الطبقة المخملية للمشاعر كي تهيج الروح وما بعد الروح، حينها ستكتشف بأنها هيّ الروح وأنك من دونها مسحوب منك إكسير الحياة، فأنت الآن لست على قيد الحياة بل إنه دورك سيأتي قطار القضاء لقلك معها كما قلها آنفا حيث النور وتجرد من ظلمة هذا الكون المتلاطم بالشرور..

تفتش بعد أن رحلت عن البديل كي تخرس جوع شوقك لها، تحسب بأنك تقلب أوراق الأيام بضعة أيام ثمّ تنسى، مسكين أنت بكل ما أتيت من شوق، ولكنك إلى الآن تسعى لتسعى، ستعرف بعد أن يطوى فراش موتها الذي فارقت عليه الحياة بأنك لا زلت منكمش قلبك على وداعها، حقائق ستقتحم مخلدك لتنهضك من

سرير الذاكرة وتقلب أضلع ألمك على فراقها، إن فراقها مؤلم جدا، وعندما أكتب لك جدا فعليك أن تكشف عن ما تبقى من وجع كي أعاينه جيدا وأشخص حالتك التي تنزف رغما عن أنفك، قال لي صديقي النمساوي بعد أن شرحت له ما هوالمعنى الحقيقي للفراق ذات خريف:

أنت يا عزيزي طبيب شوق..

لم نتلقى علوم الشوق من مدارس أكاديمية، ولم نحفظ قواعدها عبر كراسات حكومية، ولم تكن هناك جدران مدرسية لتجمع أبناء الشوق في فصل واحد، كلا..

يكفي بأن تحب بصدق، وذاك الصديق يبادلك تلك المشاعر الجياشة، وعند الفراق هنا يبدأ سيناريوالشوق يجعلك مجنونا بامتياز، لا تنتظر من يصنفك بأنك مجنون أيها المشتاق، دعني أكون أول من يقول لك بأنك:

ـ مجنون..

ـ شكرا..

ـ العفوسيدي، نريد خدمة تحرز..

الخدمة العظيمة التي قدمها لك الشوق بأنه أعطاك صفة الانتظار هبة من حيث لا تحتسب، تنتظر ذاك الطيف كي يعود!!

ـ قلت لك آنفا بأنك مجنون بامتياز..

ـ شكرا مرة أخرى ولكن لماذا !؟
لأنك يا صديقي من تنتظره في ذاك الكوكب الترابي أنت الآن تسير إليه وأنت لا تدري، صحيح أن هذا الكوكب كروي ويدور حول نفسه وحول غيره، والزمن دولاب، والدهر يداول بين الناس كعملة صعبة يغلب عليها أنها محسوسة وليست ملموسة، إلا أن من غيبهم الموت ليس لهم علاقة في معادلتك البتة لأنك إن أمعنت الشوق جيدا ستعرف بأنهم هم من ينتظرنك وأنت تسير إليهم زحفا ومشيا وركبان..
علامات قد نضجت فيك، محلولة في صمتك الدائم، محدودب بها ظهرك وكل مفاصل جسدك، تطورك الأيام وأنت تكبر يوما بعد يوم، وكلما تبخرت من حياتك ساعة كلما أزداد في جوفك محلول الشوق وتقدمت إلى من اشتقت له شبرا أوباعا أوذراعا، قلي لمن تشتاق أقول لك من أنت..
أنت وحل كل يوم يزداد وعرا وعمقا، يخشاك من حولك لأنهم اكتشفوا بأنك بدأت تهذي، ولكنه الشوق لوكانوا يعلمون، إنهم يعلمون وفي الوقت ذاته يوهمون أنفسهم بأنهم لا يعلمون، ولكن ما غايتهم..!
يريدون التخلص منك، لأنك أنت وشوقك للأموات عبئ عليهم وعلى أحزانهم التي لا تنتهي، نسوا أن أولئك الأموات كانوا

سببا بثباتهم على أرض هي ليست لهم، بل هل لغيرهم من بعدهم وهلم جرا حيث إلى تلك الحلقة التي لا تنتهي أولعلها سوف تنتهي مصادفة رغما عن كل تلك التنظريات التي أتتنا من فيض السماء وحيا، هوالوحي الذي سعى لنا لان نشتاق، كنت قد اقتنعت في بداية الشوق بأنني أعيش أعراضا تنتاب المرء بعد أن يخمر في حوانيت الشوق ولكن الأمر تطور أكثر وأكثر..

أنت هنا كساعة رملية تحصي ذرات الرمال كيف تهبط من ثقب ستحاسب بعد أن تعيش لحظة الشوق بما تشتهي من ألوان من العذاب أوالنعيم المقيم، لا عليك سيدي أنت مقيم في هذه المدينة الطاحنة بالذكريات الجميلة، ولكن بعد شوط من الكلمات المشتعلة في معاد الذاكرة ستعرف وأنت بكل مقاليد عقلك ونبضك ووعيك بأنك لا زلت تتنفس كي تحييهم من جديد، لأنهم يستحقون أكثر من الكلمات والعبارات وما بها من مشاعر عربية، والمشاعر العربية حادة جدا، مسننة جدا، تجرح تارة وترمم تارة وفي كلا الحالتين أنت محكوم عليك بالنحر على منحر الشوق لأنك بعبارة أقوى شوقا لك صفة يطلق عليها صفة:

عاشقا بشرف..

ولكن يجب أن تتخطى مراحل عدة كي تصل بكل ما أتي الشوق من عشق، لأنك ابنا لفرس أصيل من بلد أصل من تراب أصيل من حضن أصيل يدعى:

يمّة..

يمّة..

وشاح منسدل على رأس مبتل بالشعر الحريري..

سبحة مئوية حبست خرزاتها بخيط أنثوي وقفل للذاكرة..

سجادة صلاة ملقاة على شفير غرفة قد انهدم سقفها وبان الحديد الصدء من قذيفة غزاة آتونا من آخر العدم..

العدم هنا مطلق من عنانه، هنا صهيل خير وخرير صمت قادم من الفضاء، كشهاب ناري هطل من عالم الأحلام وأستقر في جوفي، بل كجمرة تحرق وتهتك وتشوي كلما آثرت الرحيل..

أمسكت بيدي عندما هممت بإفلات عباءتها، أن تفلت عطرها فهذه جريمة يعاقب عليه العشق في حال أن فقد المعشوق، ولكن المعشوق فقد وبقي العطر وشالها وعباءتها وسجادتها وسبحتها وأنا..

أنا الذي سوى الشيب بي أرضا ووجعا، كلما نظرت إلى المرآة أفزعني، ولكن القلب طار شجنا ورتب على نبضاتي ككف من اشتقت لها وهمس في آذان العشق أن غدا ستلقى الأحبة..

كنت أريد أن أحج إليها حيث التراب، أجلس على مقربة من قبرها وأشبع بكاء ووجعا، ولكن الوجع لن ينضج حتى تتأهب الروح لمفارقة الجسد، والجسد لا زال يتآكل ويتآكل ويلتهم

حسنه وشبابه كي يمتعني بالرحيل، كنت دائما أحب أن أحسن شكلي لا لأجلي.. !!

لأجلها هي فقط..

لأجل تلك اللحظة التي أشتعل لها شوقا كلما كشفت عن بئر أسراري، لأجلي حلقة الملتقى حيث وهج السر الخفي في دار الأحبة، حيث يجمع أهل العشق في باحة الله العظمى، حيث توسد الأرض غير الأرض وتبدل السماوات لمن أحب بصدق وقتل في سبيل العشق شهيدا..

إن الأماني كما الأحلام كما الأهداف، فلم يعد لي أمنية أنتظرها في دنياي من بعد أن سرقها القدر بلمحة بصر، كانت لمحة خفية خفيفة سحبتها من بين قلوبنا كخيط سلت من ثقب أبرة، وبتنا من بعدها خيوط متشابكة تبحث عن أبرة كي تكمل المخيط، ولكن أيتها الأحلام المتشابكة لا خيوط وأبر ولا قماش هنا، هنا السراب القادم من الذاكرة، حطام أشخاص مروا ما ها هنا، رائحة خبز أعرفه جيدا، صوت نداء لأحد الأخوة، أمنيات معقودة برضاها، فقدنا رضاها عندما فقدناها، ولكن القلب بات معلقا على أمنية تخشى أن لا تصلها..

بين قلبي الذي ذاب بعد رحيلها وبين قلبها الذي نشر للتراب طهره وعطره مسيرة تابوت خشبي غربي على طائرة غربية

إلى أرض الوطن وتنهيدة روح متعبة ومجهدة إلى درجة أنها لم تعد تقوى على التحليق..

أمنية أرفعها بعد كل صلاة فجر إليه..

إليه وحده الذي رتب لها موتا في كينونة شبابها، ولم نسأله، لأنه الواحد الأحد الذي لا يسأل عن شيء أراده، وإن بحثت جيدا عن أرادتنا لوجدت عويها قد سمعه خزنة جهنم وساكنوها، نحن يا سيدي اليوم ساكنوها من بعد أن عرفت بأن جهنم ليس نارا تحرق وتسلخ وتشوي وتبدد وتطحن وتفني وتحيي، بل إن هناك ما فاق جهنم في العذاب، ولوسألتني:

ـ أيعقل هذا.. !

ـ نعم يعل هذا وأكثر من هذا.. !

ـ ما هذا العذاب الذي فاق عذاب جهنم ؟

ـ إنه الفراق يا قوم..

أرى الناس كيف يحل الحزن في وجوههم عندما يتقدم بهم السن، يبدأ مسلسل الترميم الغير منطقي في إعادة التأهيل الشبابي، ولكن القدر إن سل منهم تلك الملامح الشديدة الشبابية فإن الأحشاء تبدأ تتآكل وتتهاوى وتنهار، إنها تنهار عندما يبدأ الإنسان يكذب على نفسه حيث يهرع إلى محال ومراكز التجميل لعيد ما فاته من شباب..

على العكس تماما..

أخشى أن أفوقها سنا في هذه الحياة، وأخشى من أن لا تعرفني إن رأتني، سألت أحد الكهنة في أحد زياراتي إليهم، كيف يستدل المحب على محبوبه بين كومة الأرواح الصاعدة إلى السماء !؟

ـ بالعشق يا بني، فكلما زاد رصيد العشق، كلما كان اللقاء أقرب وأجمل..

أردت قربا ترابيا، جارا لها في دار الفناء، ملاصقا لأحجار قبرها، وشاهدة بلا أسم ولا رقم ولا هوية، شاهدة كشاهدة قبرها تماما..

تخيل وأنا على أعتاب الثاني والثلاثين ما هي أمنيتي.. !

أماني الأموات والراحلين إلى السماء، أماني مرقعة بالسواد طبعا إنه في ظنك، ولكنها أمنية النور التي تحط برحالها إلى النور حيث ذاك الجسد المغطاة بالنور، حيث الحكاية التي أردتها كما خيل لي..

تكتب الذاكرة بأن أكتوبر هوالشهر الذي أشتهي أن أرحل به في يوم السادس، لي أمنية الصمت المقيت ولكم العيون الساهرة على متابعة القراءة، مساكين وأنتم تتبعون الكلمات، يجب أن تبحثوا عن شيء يسلي فراغكم يا قوم، أرفقوا بأنفسكم فالأدب ليس عالة على اللغة، إنها حالة طبيعية بحتة حيث يستيقظ شبح

المشاعر من سباته ليكتب ما جنته خلاخل النفس من وجع وفرح، فما جنته نفسي من فرح قد تبخ حيث النوى..
وها أنى أحفر النوى لأخرجها لكم كي ترونها مرة أخرى، لكي تشاهدوا تلك المرأة التي ما نامت عين ولا رفت جفن ولا نبض قلب ولا شهق نفس ولا خطت قدم ولا سبح لسان إلا وذكرها معقود بكلها، إنها حقيقة أهل العشق التي لا مفر منها، فكل عاشق يريد أن يخلد ذكر معشوقه كما يريد له الله..
والله الذي خلق العشق ومد عينه وأشعل شينه ورفع مقام قافه قد سخر للصادقين سبلا لكي يتنفسوا من عذاب العشق وفراق المعشوق، حتى أشار الناس على هذه الفئة من البشر بأن الخلل الدماغي قد صب في دماغهم صبا، كنت كأي أحد من فصائل الناس التي تهرف بما لا تعرف، أتهم وأقذف وأشتم وألبس الأثواب لغير أهلها، واليوم وبعد أن وقعت في أسيرا في قفص الهوى أعدت تلك النظر إلى
وصدقت بنبوءة العشق وطقوسه التي لا تفنى..
إنها تفنى ..
رغما عن أنف كل فلاسفة الفناء، ستنفى وتبقى الذكرى قائمة على قدم وساق، ولكن الحقيقة هنا تقول بإن تلك الفلسفة قامت كمعجزة بلا قدم ولا ساق ..

العشق حالة متشعبة في مكامن النفس، لا تلمس ولا يهمس في فوهة أذنها، ولكن تقف طويلا بين مد العين والقاف حتى تصل إلى القافية، أنت شامخ في سهولا تجرؤ على المساس بحدود العشق لأنك مصاب وموعوك بل أنت محكوم عليك بالمؤبد ..

وكلما هممت بالرحيل عن نفسي، رأيتني قد أمسك في تلابيب قلبي أنثى تدعى :

يمّة ..

يمّة..

إن الوجع الذي حدث معك كما هوذاته الوجع الذي حدث معي، إننا نتقاسم الظلام معا أولعله النور، ظلمات اللحود وظلمات الفراق، المزان الذي توزن به مسافة البعد هوالوجع بحد ذاته..

إنه ذاك الوجع الذي كلما هممت أن أخرج سيف أقلامي موجها بها نحوالورق رأيتني أحتمي بالحنين، لا أريد من الحنين سوى أنت..

وأنت !، أين أنت ؟

أنت بين كومة الشيب التي غزت لحيتي وجنبات رأسي، وأنا هنا أعدّ ذاك النصاع شعرة شعرة، أخلع ذاتي من ذاتي كي أجرد من كل ما لا يشبهك، ولكنّ كل من رأني بعيون مختلفة ملونة وداكنة، صادقة وخائنة، ملتهبة ومفترسة، ملموسة ومحسوسة كان يقول لي:

ـ ياآآآآآه يا أستاذ زهير كم تشبه أمك..

كانت الدمعة تنحدر إلى حلقي كي لا تخرج من الوجه، فأنا الذي أخبأ دموعي من الغرباء والأقرباء كما كنت تخبئن لي قطع السكر عندما أعود أليك من سفر..

كنت أخشى من أن أري ضعفي للمتطفلين الذي يلاحقونني بالأسئلة الغير منطقية، كنت ولا زلت أبحث عن الأسباب التي

تجعل الناس يلاحقونني بالقال والقيل حتى أبرمت صفقة ود وتصالح مع نفسي:

ـ أستاذ..

ـ نعم **!؟**

ـ لماذا إلى الآن لم تتزوج **!؟**

ـ لماذا لونك المضل هواللون الأخضر **!؟**

ـ لماذا تعيش لوحدك وليس لك كثير من الأصدقاء **!؟**

ـ لماذا لم لا تستقبل الصحافة والإعلام **!؟**

طبعا ليس عليّ أن أجيب، ولكن الحنكة جعلتني أخسر كثير من الناس في نظريتك التي تقول إن ودعك أحد بلا عودة فقد خسرت، بل بالعكس أنا ربحت، ربحت نفسي وأسراري ووحدتي، الاختلاط بالناس سم قاتل، الابتعاد نعمة لا يعرفها سواي وحدي، أنا ليس لدي خسارات أبدا، خسارتي الوحيدة هي:

يمّة..

ومن بعدها لم أعد أخشى شيء أبدا، وحتى الموت الذي أنتم تخشونه وتخافون قدومه فجأة أنا أنتظره بلهفة ليس من أجل ما يحمله الموت من كوارث وعذاب قد سنه الله على خلقه، لا والله،

بل من أجل ساعة المنى ألا وهي لقاء الأحبة، لقاء من مزقني الشوق لرؤياها ألا وهي:

يمّة..

أن تريد شيء وقد قضى وقدر الله لك شيئا آخر لعمري هذا موت آخر، الأمنيات كبيرة، وكلما التهمك الشيب وعجنتك التجاعيد ورقت عظامك أضحت أمنياتك صغيرة، صغيرة جدا لدرجة أن الأجيال ستضحك إن سمعت أمنياتك التي ربما تتحقق، وأنا هنا معلق على مشجب الأمنيات أقلب ورق الرزنامة وأحصي ما بها من أرقام وأشهر ومعلومات مكررة قد قرفتها البشرية..

إنه راس السنة الميلادية، على ما أعتقد بأنه يوم ميلادي الذي أنجبتني به يمّة، هي انجبت لهذا الكون كتلة ساخنة من لحم ودم ومشاعر لم تفهم إلى الآن، وأنا أنجبت للكلمات جنازة أموت شوقا تارة وتارة أحمل بين العبارات جنازة العشق والوله إليها، وتارة أدفن بجانبها التي لم يبقى لي أمنية سواها..

سواها وحدها تحار الكلمات على المشي منتصبة، تنحني الفواصل العاجزة عن تمزيق تلك الآلهة التي توحي لي ما معنى أن تحب أنثى قد انتزعت منها عن غير محض إرادتك..

سواها أنا تائه أحاول إلى الآن جمع شتات قلبي وفتات روحي كي أقف أمام الحزن عاريا من الدمع مرتديا ثوب الفرح الذي أشك بأنه موجود، ولنني سواها أسوي بذاتي ما تبقى مني كي أنجومن الحياة التي جعلتني غريبا على حين غرة، قيدتني خلف جدران أنا صنعتها بالكلمات كي أقنع قلبي بأنني لا زلت على قيد الحياة..

وإذا أمعنت النظر جيدا لوجد بأن جل ما نريده كي ننجوهومحور صغير كثقب إبرة يدعى حياة، ولأنني مدرك تماما بأنني أعيش هذه الحياة برزخيا إلا أنني أنتظر طويلا بلا ملل، أنتظر أن يتقدم بي السن وأن تمضي الأيام على عجل ويأكلني القرب يوما بعد يوم إلى أن نلتقي..

كنت احب أن اقرأ السيرة النبوية كثيرا رغم أن هناك مواقف ربما على الأغلب مدسوسة للنبي محمد إلا أن جمال السيرة في البداية يجعلك تيقن بأن الإيمان سلطان الإنسان والإنسان بلا إيمان عبارة عن خردة وبحاجة إلى هيكلة، ولكن كلّ إيمان مبني على الدم فأنا لا أقتنع به حتى لوأنزل به آيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار، أحب ذاك النبي بشغف لأنه يؤمن بالحب..

آه ما أجمله عندما تمر نصوص الحب في سيرته العطرة، أشعر بأن هذه الجرعة تنعشني وتحييني من جديد، كنت ولا زلت

أحتفظ بكت السيرة النبوية لأبن هشام وعبد الرحمن المبارك فوري وغيرها من الكتب العطرة، وكلما هممت بالنوم شدني قلبي لأقرأ ولوخمس صفحات من ذاك النبع الجارف الذي أشبعني حبا بنبي الحب والعشق، وإن طاردك أحد وتهجم عليك وشتمك وسبك وقال لك:

ما هذا التخريف..

دعه وأجعل نفسك بأنك لم تسمع شيء أبدا..

في الحقيقة أن لا أسمع لأحد ولا أحب نصيحة أحد وحتى النقد في نظري حقد حتى لوكان من أخي، لأنني وصلت إلى مرحلة هي صعبة ولكنها ودية بين القلب والعقل، حيث أنني لا أتقبل أية نصيحة لأنني أعلم بذاتي ومرادي والله مطلع على القلوب وكل نفس بما كسبت رهينة..

وها أنا في هذه الليلة التي بعد قليل سوف يطلق في سمائها الألعاب النارية فرحا بعام جديد، أشعل الشيشة وكوبا من الشاي الساكن بالعسل وقطعة من الكاتوالمغطاة بالكريمة البيضاء، أحاول أن أفتح أجفاني..

ولكن الدفء قد اقتحم منزلي الأخضر، وقد ركنت شمعة على صورة يمّة كي أشاركها فرحة الاقتراب من لقياها، أرى صورتها المسمرة على الجدار، قد اختفت الابتسامة شفاهها

التوتية، وعيونها تلاحق كل من يريد الوقوف أمام صورتها كي يراها، وأنا سواها يسوى بي الحنين..

أكوى تارة وتارة أغرق في محيط الشوق المتلاطم بأمواج القرب، ها هوالنعاس يجرني نحوشيء أنا لا أريده، أقول للأكف النورانية أن تمهلي، إلى أين.. !!

كان كاتب السيرة النبوية على الطاولة، والعاصمة النمساوية فيينا مشتعلة بالفرح تنتظر أن تلسع عقار الساعات الرقم 12، كي تنجوالأرواح من عام مشتعل بالفتن ..

يمّة..

كل الأعوام من بعد رحيلك مشتعلة بالفساد والضباب وحلكة الفتن، وأنا وحدي الذي يجدف إلى النجاة التي عرفتها بعد أن تخطى الشيب بي ثلاثين عاما، دعيني أقول لقوافل الباحثين عن كوكب آخر فيه حياة أخرى:

بأنك أنت النجاة..

حقيقة أرفعها إلى علماء الطاقة والذرة من أبناء القرن الوحد والعشرين، أن توقفوا عن البحث عن الحياة، فمن له يمّة كيمّة فوالذي نفسي بيده أنها هي النجاة الوحيدة، وبينما ذاك الجسد في حوران يطوي وحدته وحده في لحد النور، كنت أنا كذلك أطوي ظلمة البحث وحدي في بيت أفرغته من النور وجعلته أخضرا كربيع قلبها الذي يزهر في كل فصل، لا تستغرب إن أخبرتك بأن كل فصوليها ربيع وكل خطورتها زهر وإذا أقبلت انبجست السماء، وإذا أدبرت أمطرت عطرا..

لا أنسى ذاك اليوم الذي أمطرت به حزنا عندما حملناها على أكتافنا إلى مثواها الأخير، ليت أيدنا شلت ولم نشهد ذاك اليوم ذوالخناجر المسنونة..

لا تصدق بأننا كنا مخدرين من الحزن والبكاء، لا نعرف كي ابتلعها التراب، ولكنه ابتلعها على حين غرة في يوم سبت من

بعد أن سجيت في ثلاجة الموتى في يوم الجمعة، وحدها ثلاجة الموتى التي أوقفت آلة الزمان كي لا تتفسخ جثتها ولا تنتفخ، ولكن الوجع لا زال ينتفخ بنا يوما بعد يوم حتى جعلنا كمنطاد يحلق في فضاء العتمة الحالكة بالألم، أكذب عليك إن قلت لك:

لست موجوع..

أسأل القلب الذي كان في الحشا وإنا لصادقون..

فارغ من الضوء، ورائحة الخبز، وقهوة الماضي، رهيبة الصور عندما تترصدني قبل النوم وبعد النوم وفي ما بينهما، صور تقبل وتدبر في آن واحد، ألسنة من البخور تتأجج في كل منافذ السقف الأبيض المترهل، غيوم صفراء منتفخة بولاية أهل الله..

والله مطلع على القلوب كيف تشوى على فحم الفراق، جعلوا دواء لكل حريق إلا حرقة القلب تجلد وتلسع كلما لاح لي وجهها، والذي خلق هذا الوجه النوراني إني لا أكره وجهها، ولكنها تنتشلني من قفصي الصدري وتعلق بشروحي بين السماء والأرض، ليس تعذيبا، بل شوقا، إنها الوجع الذي لا يكتب، ومع أنا أقلامي مصابة بتخمة الألم والوجع فلا بد أن أفضفض للبياض ما سرب من جرح الوله والهيام..

سماها أباها هيام..

فلقد أخذت من الاسم سمته، وثرنا منه وجعه، هائمة الأرواح كلما ذكرت في مجلس أوخلوة أوذاكرة، تبحث عن مأوى لها كي تبقى على قيد الحياة، ولكن هذه الحياة آذتنا من بعدها لأننا مهما جمعنا الحب حول مائدة ذكرها، انتابنا ذاك الوجع الهائم كالحمام المغتم بعد كل غبار حرب، تشتت الكلمات وتبعثرت نقطة الضعف فينا حتى أضحت ابتسامتنا كزيت مغشوش ننثره على كل محب..

في الحقيقة لا حبيب لنا غيرها..

إنها الحقيقة التي لا بد أن أذكرها بعد خمس أعوام على طي جسدها في لحود الراحلين كطي الصحف في الكتب، جعلت من جمالها محبرة وأوارق ومنضدة وهدوء ليل أكتبه مع زخات المطر الباكية، أنا والمطر في احتدام دائم، نتلاصق ونتباعد وتجرنا الهموم منهمرين على الورق والأرض كدمعة سقطت من غير إذن، لا حاجة لأي إذن ما دامت كل الدموع تتساقط كلما اتسع الجرح وتلاشت آثار المسافات الشتائية..

أربت على السماء تارة كي لا تقع وتغرقنا، تأتي الشمس لتجرف الغيوم بمخالبها الملتهبة، آخذ أنا الدور لأبكي بنهم كي لا تقع الأرض، وما إن جفت الدموع من الآماق حتى تثور السماء على

أشعة النور وتنشد أعزوفة المطر سمفونيتها الثلاثية التي لا تكاد ولا أكاد أن أنتهي..

انتهت الحكاية حيث كانت هيّ آخر حكاية..

انتهيت من بعدها أسح دما غير مريء، كلما رأني فضولي سألنا متعجبا:

هل كنت تبكي !؟

يا أيها الفضلات التي تتغذى على الفضول والقال والقيل، دعوا المحزون وشأنه فإنه مشغول بعزاء لن ينتهي حتى تنتهي به الحياة حيث أنثى يدوى أسمها في الجوف : يمّة.. !!

صوتها لم يعد هنا، لقد استبدل صوتها القدر بناي مثقوب ألظاه النور وجعا حتى جفت به العروق الحية، وكل ما جلدنا الشوق لصوتها عزف لنا الناي كل مقطوعات الحداد، لم نحلم بشي سوى بحياة سعيدة، ولكن سعيدة لم ترضى أن تبقى في بيتنا، رحلت حيث التراب وجعلتنا ننهش بيد القطعان البشرية التي فوق التراب..

أنجدينا يا هيام..

كصوفي ينادي شيخه، كعنترة يغار على عبلة، كقيس يذوب عشقا بليلى، أحضر الأرواح على دفوف أولياء الله الصالحين، أشعل الشموع كي أمحوالظلام الرأب من سرداب أهل الله،

وأطلق للهواء الخصب المخضب بالرطوبة فتائل البخور ردعا للشياطين جلبا لروحها الطاهرة، وأمسك سبحتها وأدور وأدور وأدور..

حتى اسقط وأتجرد من خنقه هذا الكون الموحل بالبشر إلى خفة ذاك الأمان الذي لا أعرف ماذا يسمونه ،وما أدخل في سحب النور إذ بي برجل أبرص يمد قدماه سيل لماء هادئ راكد يتدفق من جبل يتستر بغابة مخضرة، أشجار باسقة لا أعرف ما هي، وطيور ملونة متراشقة تطوف بالجبل كما يطوف الحجيج بيت الله الحرام..

رهبة الروح تجري في أحشاء روحي، مصنع من الأمان يسد منافسي، القصبة الهوائية التي تنقل الأكسجين إلى الرئتين تتخبط وتشعر بالتهام هذا الهواء الدسم، هواء لا يوصف ولكن الخيال إن أمعن جيدا في تفاصيل اللحظة رمى سمه ليصيب الحقيقة التي يريدها المتلقي..

هواء رطب مجبول بنسم ربيع مخثرة، مجبولة بعسف النخيل وروح المسك، نسمة مغلفة بغفوة الزيتون وقش الليمون، وما إن وصلت إلى الأنف حتى تفجر الصدر نورا وسرورا، إنها نسمة ليس معلبة ولا مغلة، بل إنها طازجة نشطة مرنة ملونة غير مرئية وإن أحببت ستراها تتشكل وتتململ وتتلوى وتتمدد..

هواء وشفاء وغذاء في آن واحد..

مكان بعيد عن هذا الكوكب المشرب بثاني أكسيد الكوارث النووية والشيطانية، فلقد وصلت بأن الشيطان كذبة نحن صنعناها من أجل أن نعلق فشلنا الذريع على مخلوق بالأساس هوغير موجود..

ولأن بني الإنسان له عقل مجرب ومخرب، فإنه يستطيع أن يقنع الأغبياء بالخرافات والتدجيل وعلوم الكف والمندل وقراءة الفنجان..

يا بابا متى سوف تفقه ما نرنوإليه ..

وأعرف أنا أيضا..

كل الغرابة التي ننتاب عليها كي نكون أشد غرابة..

في الحقيقة نحن غرباء لأننا لم نجد قلبا واع يحتضننا، لغة الاحتضان مساحة للهاربين بين أكوم الفتن..

إلى أين سيدي..

إلى حضنها الرطب المشتعل بالأمان، دفئا بينا يمّة..

دفئا بالذاكرة المتجمدة التي لا زالت تصبب ألما، دفئا باليتامى يا سيدة التوابيت الراحلة حيث الجنان، دفئا بالقلوب المذابة في فرن الجنون المعلق بالشوق، دفئا بالأرواح المتعطشة لرؤية ظلك الواقف في محراب الله..

تمتم في سجودها وتحلق في فضاء الله..

فضاء الله المتسع لكل دعوة صادقة تخرج من فم صادق، تصب في رحاب الله كي يعيد الله للداعين مطلبهم، هوالكريم الذي لا يرد لهفة ملهوف ولا مقصد مقصود، تقصده النفوس المتعبة وتطوف بنوره ليلا نهارا، يعد إليه الكلم الطيب ويحنوعلى المنكسرين كي يرمم كسرهم..

تنكسر أنثى المناجاة بعد كل ركوع..

وتنكسر معها الكلمات المبخرة بفيح التوسل..

وتشرق منافس الصدر فاتحة لأبواب السماء راحتها..

لتمطر على المهجة طمأنينة المحزون ولتغتسل المشاعر بلطف الرحيم الذي لا تضيع عنده الودائع..

فقدنا ودائعنا في ليلة فقدت المساء قمرها، بلغة أشد وجعا هي قمرنا المفقود ووهجنا الممدود يا سادة النور هل رأيتم قمرنا بين كثبان التراب !؟

غرباء يا يمّة بتنا نفتش عنا في ملامح الأمهات القابعات في شروخ الخيال، كل ما أوقفنا الوحي على مشهد للحنان بكينا دما، لا دماء هنا كي تسعفنا من لعنة الصمت سوى ذكراك المنحوتة على صدر طفل كنت تكنيه:

يا أبوسعد..

تلاشت رذاذات السعد فينا حتى أضحت واحات الأحشاء جافة تستسقي السماء كي تمطر علينا عطرا من أنفاس يمّة، إنها يمّة كنزنا المفقود وجواهرنا الضائعة تحت مخالب التراب، هل يا ترى أن الله أراد لها خيرا فسلبها منا برحمته وعظيم كرمه.. !!

هل كنا شرا لها حتى سحبها منا كقطرة سقاء.. !!

في سكرة الموت حينما خدش صمتها المبحوح زجاج فزعنا، أفاقت لحظة لتسأل:

ـ أين سبحتي.. !!

دينار وخمسة وعشرين قرش أردني اشتريت تلك الحبات النفيسة، تريد حبات ناعمة لتسبح الله بيدها الحريرية، يدها المفعمة بالنور كنت أتساءل كيف لشبح القبور العامرة بالظلمة أن تطوي أصابعا كأصابع يمة..

كم من مسبحة أهديت لها، أشكال وألوان أحضرت لها من بيت الله الحرام، حرمت على يدها كل الخيوط المخرزة وفضلت سبحتي التي أشريتها لها، سألتها ذات صلاة:

ـ لماذا سبحتي أنا.. !!

تركت دعاءها وأوقفت حواسها في شق قلبي:

ـ إنه سر الأمهات..

أنثى الحنان المنزلق كشلال من ذهب تجيب عن السر بسحر وتفضي بروحانيتها لمسات تعجز الكلمات من صفها ورصها في ديوان يسمى:

يمّة..

ـ هذه سبحتك..

تمسكها ونبضاتها متكأة على كتفي الموت، تتهاوى من ربيع خديها دموعا كانت محبوسة تحت رعاية الفراق، وتتمتم بحمد الله:

ـ هل تريدي شيئا آخر غير السبحة.. !!

تبتسم بكل سخرية للوداع والحياة، تأخذ آخر نفس عميق لها، وتحلق العينان في السماء وتطلق دعوة:

- ربي يرضى عليك يا يمّة الأرض تنبعلك والسماء تنزلك.

وتدخل في غيبوبة الغربة، لأننا نحن غرباء بكينا على غربتنا وغربتها التي لم نرتوي منها، عطاش إلى جمالها، طلتها، شعرها، شامة مستقرة تحت عنقها، خاتما في كهنوت أصبعها، خاتما يحمل رسالة خاتمة وتعب..

أقسم بالذي جعل من الشجر ورقا ومن السواد حبرا بأن الشوق أذاب الحشا وجعل من القلب نارا موقدة ومن النفس جمرا ومن الروح هبوبا تحطني طحنا..

لا تلموا محبا، لا نهروا عاشقا، لا تطردوا مجنونا..

دوني لجنوني، لسهر الليل لخموري، لجعجعة الصدر لدموعي، لخليط من الذكريات لعويلي، للباسقات الراسيات المشرعات النازعات النازفات السابقات الباقيات المتربات الزاحفات الحافيات الملهمات الباكيات النازفات الساحقات العاديات المترعات المقلعات الجاريات في الوريد وما تسنى للعبيد، فلا تقتصر العبودية بالسجن والإكراه، بل الشوق خير ظالم إن استقر في الحشا..

عن أي حشا ذاك الذي يلتهم وحدتي ويجتث خلوتي ويذرني للقاحلات الراجفات في كهنوت الوجد أتلوى ألما، مؤلم الحب مؤلم العشق مؤلم النزف..

لم أهتم بكل ترهات هذه الحياة سوى بالأكفان البيض والعطور والبخور على حب اللقاء، مبتهج في ذاك اليوم أريد ألقاها وأدثر شوقي برؤياها..

رؤياها الموجعة عندما كشفت عن وجهها، الأكفان البيضاء، الحجاب الأبيض، القميص المخاط للقاء صاحب البلاط، العطور والبخور، وأنا المتسمر على شقوق الوجع أنزف وأرتعد وتهتز فرائصي كل أعود طفلا أنتظرها أمام كل بسمة وفرح وحياة..

يا أيتها الابتسامات المتراشقة على وجوه أهل الفرح أين أنت !، أين الدار العامرة بنورها !، أين صوت الرحمة الذي ينبثق من بين ثناياها !، أين مهجة الجمال ومراسم الكمال.. !

كأن الصمت يوافي المكان، يسعف الراحلين ويربت على الحيران، يجني من بيادر الخفق كل نبض وخفقان، يمحوأثر الطرقات الواسعة التي كانت تمشي بها، أيعقل أن الصمت خوان.. !!

نحن غرباء الأمكنة والأزمنة والمسافات الخاوية من كل ما هومهج، غرباء لدرجة أن الغربة أنكرتنا ووسدتنا في جوف

النسيان، وكلما أقول أن النسيان نعمة تفضيض عليّ الذاكرة من كل منافذها، طوفان يغزوالصدر ويغرق العيون بغبار السنين التي اقتحمت شبابي وجعلتني كهلا يتعكز على الكلمات كي لا يبقى وحيدا..

أنا وحيدا كحروف أسمها الرباعية، مسجى مثلها تماما في لحود السطور الشاسعة، أتمايل على ضعف العبارات من أجل أن أنجومن لعنة الحنين..

وحيدا فارغا متعبا كراحة الأرض ككفة السماء كدوران الأرض ولهيب الشمس وتدافع المجرات وشهقة الوداعات..

نعم نحن غرباء بالفعل..

غرباء لدرجة لا يتصورها عقل..

نحن نقدس الكذاب ونكذب الصادق، العقل في أدمغتنا معطل، والعواطف تتأجج على حسب الأرصاد الحسية للغيبيات، المصيبة أننا أشرعنا أبواب قلوبنا لهم، ولكنهم لم يحترموا القلوب ولا أصحابها، من باب الزحف نحوالسخرية على العقول المعطلة أحببت أن أسوق لهم المثل الذي صنعوه بأنفسهم:

ركبناه على الحمار، مدّ يده على الخرج..

خرجنا الله لا يقينا شرّ الضر الذي ألحقناه بأنفسنا، وجد الخيال كي يسبح المتخيل في الأمنيات، بل كي تسد رمقه العطش للأشياء التي يفتقدها..

الخيال مساحتي الوحيدة التي أهرب إليها متخلصا من هذا العالم المؤذي، ألتقي بمخيلتي مع من أحب، أشاطرهم الكلمات، كنت فيما مضى رساما، قد حصلت على أربعة عشرة شهادة في الرسم، وكلها في المرتبة الأولى، ولكن عندما دخلت المدرسة الشرعية التي ذهبت إليها عنوة عن أبي، جردوني من الخيال وجعلوا مني هارد يحفظ المعلومات من غير أن تناقش أويسترسل بها بالكلام..

لأن الكلام في حضرة الشيخ ممنوعة..

فضيلته ينزع من أن يسأل عن أية معلومة، المعلومة الوحيدة التي حفرت في الأدمغة هي القاعدة القذرة التي أحفظها إلى هذا اليوم ألا وهي:

نتمسكن، حتى نتمكن..

ما هذا الهراء !، وما هذه الخزعبلات !، هل هناك علم في العالم بحاجة إلى تلون كالحرباء من أجل أن نأخذه !، أنه الأدب المبطن لعلماء أمة باعوا ضمائرهم وتخليت أنا عن قواعدهم ومبادئهم، أذهب إلى تلك الخلايا التي تخرج العقول المسدودة بفلينة زجاجة خل عفن وشاهد بأم عينك إلى أخلاق تلك البؤر التي تعلمت لتفسد أكثر مما تصلح..

لا أصلح الله حالهم..

إن صلاح البشرية تبدأ بالانتهاء من هذه الخلايا التي يتغلغل بها سوس العداء والبغضاء، تلك الأشباح المتناثرة التي تخرج للمنابر أصواتا تنادي البشر بأن يقتتلوا ويختلفوا ويحجموا ويقللوا من الطرف الآخر..

الطرف الآخر هم أناس وصلوا إلى المريخ، الذي أوصلهم إلى المريخ هوالعقل والمنطق، هؤلاء في نظرية الفزاعات المنتشرة على منبر رسول الله هم ليس من أهل الجنة..

أنا تخليت عن الجنة منذ أن عرفت بأن لها أبواب وبواب ومفاتيح وهم من يمتلكونها..

سيدي .. نار جهنم أدفى..

أعوذ بالله منهم ومن جهنم ومن شرورهم..

إن كميات الشرور التي تتمحور حول هذا الكوكب أضحت كوكبا آخر يدور حول الأرض والشمس، وأنا لا زلت أدور في مكاني:

ـ أشرب هذا الكوب من الماء..

أمسكت بالكوب النحاسي، بارد كأنه مثلج ولكنه لذيذ جدا، شعرت بالماء كيف سال إلى أروقة شراييني، وأمدني بالقوة:

ـ شكرا لك مولانا.. !!

تغيرت ملامحه، ولكن لم تتغير ابتسامته أبدا:

ـ بني لا تقل لي مولانا..

ـ كم أنت متواضع يا مولانا.. !!

ها ها ها، ضحك ضحكا لم أرى في حياتي أجمل من ضحكه، كانت السماء تزداد بريقا ولمعانا مع صوته الذي هوأشهى من صوت الدنيا وما فيها:

ـ بني هذا ليس تواضعا أبدا.. !

ـ إذا.. !!

ـ أنت الآن زائرا إلى هذه الدار..

ـ أيّ دار تقصد ؟

ـ إنها الدار البرزخية التي تفصل الإنسان بين الحياة والموت، هنا ينام المرأ حتى يحين موعد اللقاء مع الله..

عندما اسمع بلقاء الله تنتابني قشعريرة تهز الوجد في مكامن أحشائي، إنها أحشائي أنا لا أنتم، تلك الأحشاء التي آذتني أكثر ما أعدتني، عشت في كابوس مرعب أربع سنوات في دمشق أتلقى العلوم الشرعية، وأدب المربي والمريد..

تعلمنا أن نتأدب مع الشيخ أكثر ما نتأدب مع الله، كنا إذا اختلينا ببعضنا نقوم الدنيا ولا تقعد بالسب والشتم واللمز والهمز والغيبة والنميمة وهلم جرا من أفعال يستقذرها العقل البشري..

تخيل أن تسقط سهوا في قفص أمة لا تحب بعضها ولا تحب غيرها ولا تحب نفسها، أنت بالفعل وقعت ولا تدري أن النجاة هوطريق واحد فقط، ألا وهوطريق الاستقامة وتربية الروح على الصبر والتحمل واحترام الناس جميعا العاصي قبل المقبل على الله، والغير مؤمن قبل المقبل على الله، والله غنيا عن الناس جميعا لوكانوا يعلمون..

هم يعلمون فعلا، ولكن نسبة الغباء مرتفعة جدا كلما زاد في سن هذه المجرة، تخيل أن تنسب إلى أمة في أحشاءها ثلاث وسبعين

فرقة كل من بها من فرق ينسبون أنفهم أنهم أهل الحق والصدق..

أنت فقط تخيل..

الأجرام ليس في أن تتخيل، كلا يا صاح..

الأجرام ترى بأم عينيك كيف تتسلل الفزاعات التي تشبه مكانس السحرة إلى منابر صاحب الفضل المعظم النبي محمد، وكيف تتخذ وسلية تجييش عواطف الأمة كي يكرهون بعضهم بعضا، جموع غفيرة من الطاقات الشبابية سلمت عقولها لفارغين العقول..

العملية سهلة جدا، عندهم القاعدة التي تقول:

تخلية ومن ثمّ التحلية .. والعكس صحيح..

يأتي الطفل معافى من جنون الأهل ومغطى بكريم الفطرة، الفطرة التي أمر أن يشغل عقله بها هولا غيره، ويأتون أهله أولاد الحرام كي يزرعوا بدماغه بأن فرقتهم هي الفرقة الناجية التي تأخذ بصاحبها إلى جنات النعيم..

يجالس الطفل قطيع الخراف، ويسمن في بيت أبيه وأمه للذبح، وبعد أن يروض على حب الانتقام، تقوم قيامته، يصبح الخروف في ليلة يختفي بها ضوء القمر عبارة عن ثور هائج كتب على قفاه:

هذا الثور للبيع..

حاول أهل العقل أن يجمعوا بعض الأطراف على طاولة واحدة، ولكن كبار الثيران من الفصائل المتعاركة تأبى أن تجلس على طاولة وحدة، ليس خوفا من المواجهة أمام العقل وقوته .. كلا.. بل من أجل طهارة عباءة مولانا..

مولانا نجساته مغلظة جدا، إنه هوالذي أشبعنا خطبا عن نجاسة الكلاب البريئة، ونسي أنه أنجس خلق الله بأفكاره التي هي أقرب إلى الأكشين .. أتركنا يا شيخ والله قرفنا.

ـ لماذا أنا في عالم البرزخ.. !!

ـ أتيت زيارة إلى صاحبة الجلالة..

ـ هل يوجد في عالم البرزخ مقامات يا مولانا !؟

ـ بني هل ترى هذه السهول والجبال والفراشات والطيور الملونة التي لم تشاهدها في دنياك.. !

ـ نعم وأنا أشعر بالغرابة فعلا من هذا المشهد الذي لم أتوقع أن يخيل إليّ أنه جميل إلى هذه الدرجة..

ـ هذه المساحة التي لا أعرف كم تبلغ من ثمن وطول وعرض تمتلكها صاحبة الجلالة..

ـ وهل أنت خادما لها !؟

ها ها ها، رجل بهيّ الطلة جميل النظرة في قلبه سرور وفرح، كأنه كتلة من غيوم ربيعية لمستها كيف شمس ساطعة:

ـ أنا عملها الصالح..

ارتجفت وعدت إلى الخلف:

ـ هل أنت جني !؟

ـ لا يا بني أنا عمل الإنسان الصالح الذي إن صلح عمله بيضه الله وشهد على صاحبه بخير ورفعه الله مقاما عليا..

ـ إذا أنت إنسان !؟

ـ أيضا لا..

ـ حسنا، وماذا صنفت صاحبة الجلالة حتى رفعها الله إلى هذا المقام !، وهل كنت أمرأة صالحة إلى هذا الحد لتحظى بهذه الدرجة الرفيعة !؟

ـ كلا كانت أمرأة عادية، لم تؤذي أحد، ربة منزل لها أبناء بارين بها، لم يطوى يوم إلا ورفعت لها دعوة أوأنفق على روحها صدقة..

نظرت إلى هذا الجمال المتناسق في، أدقق بكل التفاصيل التي لم أرها في دنيا الناس، سحر ما بعده سحر، ولكنه سحر يخلع القلوب ويؤنس الروح ويعيد العافية للأبدان الضعيفة..

ما ألمّ بي المرض، ولا نخر بيّ ضعف، ولا استعصت عليّ حاجة، ولا دهمني قلق، ولا سلبني هم وغم، ولا أضللت طريق، ولا أغرقني رفيق، إلا ووقفت شباك الذاكرة..

ذاكرتها هي..

ذاكرة كمقام آل بيت النبي..

أطوف حول شالها كطفل أنهكه الجوع، كوليد متعطش لثدي أمه، كقافلة تاهت في وسط هذا السراب، أحوم بعطرها الذي تغلغل في القماش، كمن شبك أصابعه المتعبة بقفص الإمام الحسين، وأبدأ أناجيه بها:

يا رب بجاه صاحبة الشال، أم البنين واليتامى، أنجدي يا رب مما أخاف وأحاذر .. ما أكد صمت من مناجاتي حتى يأتني المدد، يهبط من السماء كحمام أبيض، ناعم الريش والمراح، كامل الطهر والجمال، إنها الذاكرة التي لن أناساها أبدا..

الذاكرة التي عشت من بعد أن جردت من الحياة وألبسها الموت ثوب التراب والغياب، بت بعدها تعبا مهموما ملكوما ممرغا بالحزن، كلما شاهدت أما يسير بجانبها أبنا لها، أشعر بالذبحة القلبية التي آذتني منذ أن أطلقوا عليّ الصفة السوداء:

يلي خلف ما مات..

كذبوا ورب البيت المعمور، إن الذي خلف ومات، مات من بنوه بعده هما وغما وحزنا، انطفأ قلبي كخسوف فجر الشمس ومحى نورها، وبنت من أتباع الحسين أجالس الوحدة والظلام، وأبكي مع البواكي، وألطم الخد، وأشق الجيب، وأنثر التراب فوق راسي، فلا تقل لي هذا حرام..

في حضرة الفقد والغياب ينقلب الحرام مباح، لأن المحب الذي فقد حبيبا، كالحبيب الذي غادر محبا، كلاهما من سلالة الأموات..

لا ألوم من لطم وجهه وشق ثوبه وعفر بالتراب رأسه، لا والله، لأن الألم وصل منتهاه، يبت المحب يتقلى ويتلظى على جمر

الشوق حتى يجمع بينهما في رحاب أرض الحب التي أخبرنا بها الحبيب المصطفى:

ـ يحشر المرأ مع من أحب..

أصبح هذا الحديث وردي، كل يوم أردده في كتب الأحاديث النبوية التي تشفي قلبي وتبرأ جرحي، تبا لهذا الجرح الذي لم يلتئم إلا بالتمرغ تحت قدمها وتقبيل أطراف ثوبها، لا تلوموا أهل الحب إن فقدوا حبيبا، وتأمروهم أن يخلعوا السواد، فلوخلعوه إرضاء لكم فالقلوب سوداء مظلمة حالكة بالغياب..

جلست في مدينة اربد ثلاث أعوام، أتمرغ على جمر وداعها الذي سبب لي أزمة نفسية إلى هذه اللحظة، تلك اللحظات التي أقف على أعتابها، تلك الأيام التي سرقت لبي وكلي وسحبت أجمل فرحة في حياتي، أنثى كانت ولا زالت هي فرحي..

أفرح عندما أقلب صورها، مرميا في حضنها، أمشط شعرها المبتل بالعطر، شعرها الحريري الذي لم أشهد نعومة في هذا الكون أنعم منه، وأقلم أظافرها وأخبئ تلك الماسات الطاهرة في صندوق من ذهب..

لا تستغرب أبدا، نعم من ذهب، لم أجد ما هوأثمن من الذهب كي أخفي جواهرها التي في نظرك شيء تكرهه، من حقك أن تقرف، ومن حقي أن أمنح، ومن حق الجميع أن يصمت في

حضرة أنثى حملت بك تسعة أشهر وأنجبتك من بعد ضعف وقوة، أربعة وأربعين عاما وهي تتظاهر بالقوة، أربع وأربعين عاما وطوى الله ظلها تحت ظل الغياب كي تنتهي قصة لا أعتقد بأنني سأنهيها، لعل هذا الجسد سيلتهمه الموت يوما من الأيام ويكون هباء منثورا، ولكن لا يمكن أن أنهي سيرتها بهذه الطريقة المخيفة للفناء..

ستفنى أقلامي وأوراقي ومنضدتي ومحبرتي، ولكن صوتها وشالها وأسمها وسمتها وحسها ونورها سأشعله بالكمات والعبارات مبتدأ بها منتهيا بها، ليس من أجل عيون القراء، بل من أجلها هي..

هي وحدها من شتت خطواتي، عبثا أن يضر بي الشتات، لأن الشتات حبا فيه أجر، أجر العشق وأجر البر..

لم أفعل شيئا لأبرها سوى أنني جعلت من كلي راهبا في أحياء ذكرها ورفع سيرتها، يا أنثى التراب والغياب أنجدي وحيي من الغرق في محيط الحزن جزعا..

غرقت حتى تألمت، وتألمت حتى تعلمت، وتعلمت حتى أضحى الألم مزية مزرية لمن يتابع سطوري ويشاهد أوجاعي، هل يعقل بأنني فضحت سر الوحي الذي يهبط على قلبي، في الوقت الذي أجهز نفسي لأكتبها أوأكتب غيرها..

إنـها هي السبب والمسبب وكل أسبابي . أحبها.

يمّة..

وأنا في العالم البرزخ هذا الذي لا اعترف به سوى أنه خيال، نعم خيال أعيشه من أجلك أنت، ليس إيمانا بما كنت أؤمن به غيبا، لأني كنت مخدرا غبائيا، بل لأنني أؤمن بك أنت..

أنت وحدك من جعلت الإيمان يستقر بي حتى أخمص يقيني، ويقيني بك عال المستوى والجنب والجناب يا صاحبة الجناب، ومن إيماني بجنابك الرفيع في يوم خريفي نحاسي برونزي رفيع..

أجلس لأكتبك تحت شجرة أختلت بأغصانها الباسقة في ساحة كثرت بها الأشجار المغرورة، لأعتقد بأن هذه الشجرة أصابها الغرور، وإنما أشعر بها لأنها مثلي تحب أن تهرب من صوت الغربان وتشابك الأغصان، وها أنا أتعلم من الطبيعة لا من البشر الذين ألحقوا بقلبي الأذية، وأكبر من ذاك كله عندما يأتون ليقنعوا المحزون بأن هذا الحزن نعمة من نعم الله قد أرسله الله إليك ليختبرك..

لست أهلا للاختبارات والمجازفات والتقلبات السماوية، أنا ابن الصخور السوداء الممتدة على سلاسل تراب حوران، ابن الفلاح الذي أمضى جل حياته بين بيادر الزيتون والقمح والرمان، ابن

الجدة التي حملت الحطب على ظهراها حيث التنور وصاج الخبز وقدور اللبن..

لا يهم أنا ابن من، ولكن من المهم أن تعرف بأنني ابن أنثى كانت لا تتلكم ولا تتألم وإن تألم سمعت في صمتها شلال دم يسيل..

ها هي الكلمات تسيل على زجاج الورق حيث عروس الشمال اربد، ماتت من كنت أظن بأنها من المخلدين، صاحت السماء أن لا خلود بل جنون القدر ينتقي من يشاء من خلق الله، وأيضا جنون القدر قد أقسم أن ينتقي من أهل الحزن حزبا يبكون ويتباكون على من رحلوا..

ولكن مجالس الذكر كانت دوائي، أهرب من زفير الخلق إلى شهيق أهل الصدق الذي يرون الدنيا من ثقب إبرة ولا تغرهم الدنيا ولا يغرهم بالله الغرور..

كانت الأماني صامته كشاهدة باردة تماما، وكانت الفصول تتقلب بكل توجس كأنها تظن بأننا لا نشعر بها، محال أن تأتي ذكرة ولا نشعر بدفئ الربيع وزمهرير الشتاء ولهيب الصيف وتساقط ذاكرة الخريف ويمّة..

إنها فصل برزخي يأتي بين كل فصل وفصل، وفي أغلب الأحيان يتخلل الفصل نفسه كي تقول لنا:

ـ هل نسيتني.. !!

من الجنون أن أنسى أنثى الحلول التي أستحي أن أقول عنها أنثى، بل يا كل الإناث الناصعات بالنور أنجدينا حيث النور يا سيدة الزيتون المبتل بعرق الياسمين..

ـ أريد أن أرى تلك السيدة التي رزقت بكل هذه المساحة من الجمال، هل لي ذلك.. !!

ـ طبعا وبكل سرور..

ـ هل المكان قريب.. !

ـ نوعا ما يا بني..

ـ كم نريد من الوقت حتى نصل إليها !؟

ـ أربعة وأربعون عام مما تعدون..

ـ يا إلهي، هل تعرف ماذا تقول ؟

ـ نعم بالتأكيد، إذا تريد سوف نباشر المشي إليها..

ـ أنت تمزح أليس كذلك.. !!

ـ لا، أبدا..

لم اقتنع بما قاله هذا الرجل، ولكنه على ما يبدوا أنه وثيقا من نفسه، واثقا يسير على كله ويريد مني أن أسير خلفه، سرت خلف كثير من الأفكار في الأيام الغابرة، كنت أريد أنا أكون كما أريد، حتى ولوبالقوة..

أذكر عندما وقفت أمام أبي ذات صيف حار سياسي مرعب قد عصف بالبلاد، الأخبار التلفزيونية تتناقل بأن الحكومة قد ألقت القبض على خلية نائمة تتغلغل في البلاد، وتريد شرا للوطن، ولكن هذه الخلية ذوطراز طائفي معين، أنا لم أكن أفهم من هذا الحديث سوى أنا الأخبار مجرد تلفيق وكذبة:

ـ لماذا أنت وقف أمامي هكذا..

أبي ذوالطبع اليساري الشيوعي الحاد، ولكنه لا ينتمي لتلك الجماعات التي تعقد المؤتمرات الكاذبة، وتأكل المناسف بالسمن البلدي بعد كل مؤتمر:

ـ أريد أن أطلب منك شيئا..

عدل أبي عن جلسته، أدرك أن الأمر خطير جدا:

ـ أريد أن ادرس الشريعة الإسلامية..

لم أنتهي من طلبي بعد، لم تكتمل الجملة، لم أعتقد بأن أرى الدنيا سوداء مجردة من النور إلى هذه اللحظة، لا أعرف كيف هوت يده على وجهي وجعلتني أفقد الوعي إلى هذه اللحظة من الإيمان، لم يكن إيمانا أبدا، بل كان حلم وخيال مبني على العاطفة، لم يمر على تاريخ العائلة المناصرة للعقل والمنطق والجحود بوجود خالق بأن خرج من أصلابهم من يوحد الله..

كنت أنا ذاك الفأل المشبع بالشر الذي احضر لهذه العائلة الحزن والكمد، مرت السنون بكل قسوة وسرقت مني أجمل ما مني وصدمت بعاطفتي التي أشبعتي بكاء ووجعا ودائما أكتب في دفتر مذكراتي:

ليت أبي قتلني، ولم يسمع مني ما تحيكه عاطفتي، وما أرسلني إلى حضائر المدارس الشرعية التي تلقى فيها الأجيال حب الذات والكراهية والتطرف..

صدمت بذاتي عندما حملت حقيبتي في أول يوم دراسي، وشاهدت تلك البؤر المتغلغلة التي تعشش خلف جدران الله وتحيك الحقد والبغض بسم الله ونبيه وآل بيته وأولياء الله وعلماء الأمة المتفرقين..

صدمت بالوقت كيف يمر كلّ يوم وأنا أكره ذاتي أكثر وأكثر، سأمت وأنا ألعب دور الرضى وأنا هذا الطريق الذي اخترته يجب أشقه بنفسي..

شقني نصفين، ومزقني قطعا صغيرة، ونثرني في أجواء الحياة، كانت الحياة تنهشني وتمزقني خلف قناع بت أكرهه..

شاهدت العائلة بعد ثلاث سنين ونيف من التطبيع مع ذاتي بأن الجميع قد وصل إلى مرتبة الرضى، بت أشعر بأنني أتلقى تلك القواعد وأحفظها كي أرضي من حولي..

ـ إذا .. وأنا!!

ـ أنا ضحية أقفلت بها على نفسي، وهي.. !!

ـ من هي ؟

ـ يمّة.. !!

يمة مثلي صابرة محتسبة على ما أصابني..

نعم إنـها يمّة..
يمّة الصامتة الصابرة التي كانت تضع كفها تحت ذقنها وتسترسل بالنظر إلى آخر الطريق، فمن كانت تنتظر يا ترى، إنـها كانت تنتظرني..
وأنا اليوم انتظر الموت كي يصلني بها، الموت في هذا الزمان هوالبوابة الوحيدة للقاء من رحلوا، إلى هذه اللحظة أدرك تماما ورغم بعدي عن أرض الوطن بأنها لا زالت هناك، جالسة على عتبية البيت، يسلم عليها المارة:
ـ كيفك يا جارة !؟
ـ الحمد لله، تفضل يا أم صلاح، تفضلي..
إلى هذا الوقت من انغماس الذاكرة في تفاصيل أحبها وأكرهها في آن واحد، إلا أنني ابتسم لأنـها العامل الوحيد الذي يشعرني بالحزن والفرح وهي وحدها التي تعلم ذلك، ولكن لا تلزمني بالجنون لأنني لم أصل إلى ذاك المنعطف من الخرف..
أسير خلف العمل الصالح، إنه علم أنثى إلى الآن لدي الفضول كي أراها، ولكن يا لي الهول أربعة وأربعون عاما حتى نصل إليها، ما هذا الضرب من الجنون.. !!
إنه ذاته ذاك الضرب الذي أخذت على نفسي عدا أن لا أتركه حتى يرث الله الأرض ومن عليها والله خير الوارثين، إنه الإرث

الذي جردني من النوم وجعلني على يقظة من أمري لأن الأمر والنهي بيد الهم والغم..

مهموم ومغموم كيف سيطلع عليّ صبح أويأفلّ على قلبي ليل، إنها الأيام تسير كدوران الظلام حول كومة الأرض الملتهبة ظلمة، أصيح دائما أين لهيب الشمس، إنها لا بد وهيّ مشغولة بحفل شواء تعده لمركز من القوم كي يخرجوا الذهب الأسود ويبيعونه للغزاة..

لا يهم من هم الغزاة !، لأكتشف بعد ربع قرن من الزمان بأن الغزاة منا وفينا لا سلم الله لنا عقل كبير ولا أمر علينا داهية ووزير..

نحن الغزاة أبناء الغزاة الذين أورثنا للأجيال ذلا في العمل والعلم وأضحينا أضحوكة العالمين في إرث الجهل الذي استلمناه جاهلا عن جاهل..

ولا زالت الأرض تدور وتدور، ولا زالت الحياة تنجب لنا من أراحم المكر والخديعة دهاة في فنون السلب والنهب وتجريد الشعوب من الكرامة..

ولوسألت الكرامة يوما ما، وهي جالسة في محطة ما، تنتظر حافلة ما، لما هربت ! .. سوف تسمع العجب العجاب، والأعجب من ذلك كله بأن تسمع وتبكي معها وهي تندب حظها

وتشق جيبها وتنثر التراب على رأسها، إنه السيناريوالوحيد الأكثر غرابة إذا ألمّ بالعرب مصيبة، فليس لهم إلا النحيب والبكاء والعويل والوجع، إرث قد بال عليه الغزاة وعلنا نحن أبناء الغزاة..

دمويين بكل من أتي التاريخ من إنصاف، أن تنصف التاريخ فأنت العاقل الذي نجى من لعنة القوم وأسوداد فكرهم المخمر بالشاي العسكري، أسود حالك كظلام قلوبهم المشربة بالغدر والخديعة..

نبيع أخانا وأخي أخنا للعدى بحجج واهية، نحن نصنعها بأسماء عدة، نستخلصها من مواد نحن وحدنا من يعرفها ويقنع غيرنا ويقنعنا بغبائنا المتوارث..

نهيق المنابر لا زال يخض في أمعاء القلوب والعواطف، يجرد العقل من المنطق في حرب منبرية يشنها أصحاب الفضيلة وأبناء الرذيلة..

جرجروا الشباب والطاقات البشرية تحت قواعد مسح الخفين والجوربين، وغيبوا الفكر في الغوص في صفات الله وأسمائه حتى ضاعت الأمة وأضحت أضحوكة بين الأمم، أمة أشبعتنا خطابات وتنديدات وشعارات بتاريخها الزائف، ولا زالت تنهق رغم بركة الدماء التي كانت سببا في فيضانه..

وتسبح تلك الموارد البشرية في مغسل الشرود والهذيان على أكتاف القال والقيل والسب والشتم، وكلما زاد فيهم خطيبا ورفعت فوق تلك البيوت المحصنة بالبشر منارة ترفع صوت الحق، سترى بأم عينك كيف الجهل ينتشر في الأرجاء كالجراد والضباب..

قباب عامرة بأوان عدة، منصوب فوق سنمها نجوم وأهلة وصلبان أودت بحيات ملايين من البشر بحجج واهية، حجج لا تسمن ولا تغني من جوع..

ولأننا أمة جائعة لكل شيء، نرسم لكل خلل وشرخ أبرة وخيط كي نخيط سفلاتنا وكذبنا، ونقول لا يملأ فم ابن آدم إلا التراب، بالفعل تعال إلى مقابرنا ومقاماتنا التي تجتاح المساحات الترابية في تلك البلدان العامرة على جثامينها التناقض، تعال وشوف يا حباب إلى أين وصل بنا الحال، حالنا لوله فم ولعاب، لبصق علينا..

مقامات وقبور وأعتاب مقدسة وكذب وخداع ومكر وتلاعب بالأدمغة وهلم جرا من جرار منكسرة ومتهالكة، تعال وأمعن النظر في تلك الخدع التي كنت فيما ما أعتقد بأنها تنفع وتضر..

أقفاص مذهبة بل من الذهب الخالص عيار أربعة وعشرين، وشابيك مطليه بالفضة بل إنها من الفضة الملبسة بالأحجار

الكريمة، وخرق ملونة معقودة بالمعادن الباهظة الثمن، وجدران عجز قارون على الابتهاج بها، وطوافون يحملون البخور على رؤوسهم والعود والعنبر والعود، من أجل ماذا يا ترى.. !!

من أجل ميت..

نعم ميت منذ ما يقارب ألف سنة أويزيد، يتبركون به ويتمسحون بأعتابه، ويمرغون أنوفهم في جنابه، إنه الذل على شاكلة عبادة مقننة تحت عدة أغطية، كالسلب والنهب والنذلة والحقارة، عقول مقفلة تماما مؤصدة بالخوف من أن تحل عليه لعنة من السماء..

هم ملعونين منذ أن سلموا عقولهم لأهل العمائم والطيالسة واللحى النجسة التي يختلي تحت نجسها جنود مجندة من القمل والجرب والجراثيم..

ومع أحترامي لأهل الوسط والإنصاف، إلا أن الإنصاف في هذا الزمان جريمة يروح صاحبها في الهاوية، الهاوية التي نصبت لأهل العقل والحل، محاكم أقامها أهل الهوى على أهل الحق كي لا يفسدوا عليهم لصوصيتهم..

واللصوص في كل مكان لهم مجالس ومحاكم باسم الله..

في كتبهم التكفير والتفسيق والتجرد من الملة، ولورأيتهم وهم يدافعون عن قانون الله لقلت:

بأن هذه الملة ملة أبوهم..

أبوهم آدم الذي نسبهم لعقل، والعقل متهم حتى تثبت إدانته، والإدانة طالت كل من له قلب يفقه ويعقل ويزن الأمور لمصلحة الجميع ولكن..

يمّة..

ولكنها هي التي أمن بها وحدها..

وحده حنينها من كان يوقظني من نومي ويسحبني حيث الأمان، كنت أشعر بالخوف من أن يطلع عليّ النهار ولم أفيها حقها، سوف تتساءل وهل الأموات لهم حق على الأحياء.. !!

خسأت أمي لا تموت بل هي على قيد نبض وعشق حلم وشغف وحيّ وحسيس قلم وتأمل ورق، هي وحدها من أنحت من صخور الكلمات لها تمثالا وكي أبقى أنفسها حبا وولها..

تلك التي أبرمت صفقة ود معها حتى نلتقي ذات رحيل تحت تلك الكثبان الترابية، حيث لا حقد ولا حسد ولا مطامع، هناك أريد أن أضمها كما ضمها نور قبرها وأجلس على منعطف الخبر كي أبحث عن ضمير لكل من فقد ضميره بينه وبين أمه..

بكل ما آتتني الحياة من قلة أدب أقول لك:

يا حيوان هذه أمك..

قليل من يتعقل ويتمهل في جرح من كانت سببا في اشتعال مشاعره وجعله رجلا أوأنثى، قليل جدا أن أرى تلك المشاهد المحمومة بالرضى في هذا الزمان الذي ركله أهل الزمان..

في بدايات هذا القرن الإلكتروني أحمل كل يوم خمسة عشر كيلومن الخبز كلّ صباح حيث أفواه الجياع، وفي نهاية الأسبوع يصل الوزن إلى خمسين كيلوخبز..

أحمل هذه الحمولة على كتفي كما كانت تحملنا على كتفها، حيث الطرقات الواسعة والأرصفة المرقعة، حيث هواء حوران وبيادرها وهسيس العجائز والجدات، حيث أصوات التركات القادمة من الحقول الصامتة مع هزيز الحشرات المتناثرة في الأجواء، حيث أشجار الزيتون الباسلة كتماثيل طغاة الأرض والعرض والكرامة والرمان والمشمش والدراق، حيث المساحات المذهبة بالقمح المحمس تحت صاج الشمس وبريق الأقحوان الذي يغري قبائل البدوي وخرافهم الخائرة..

على كتفها تتدلى قدماي إلى صدرها، ابن العام ونصف وبداية أسنان قد بدت بالنمو، أداعب الهواء الطلق وتداعبني بكفها، أحاول أن أنزع حجابها بيدي اللتان لا تكفان عن مضايقتها، إنها لا تتضايق مني، ولكنك إذا نضج عقلك فلولطمتها على خدها كان أرحم من أن تلقي في بئر قلبها بكلمة تجعلها تندم طيلة حياتها أن أنجبتك حبا بك بل حبا وعشقا أكثر من نفسها..

ها أنا أحمل أمانة ألزمت بها نفسي كي أبقى ذكرها يجري على أهل السماء والأرض، أنظروا إلى ذاك الشهاب المشبع بالنور، إنها دعوة ابن أرسلها لأمه..

هكذا كنت أتخيل أهل السماء عندما يرمقون تلك الأكياس التي يتأجج من أعنتها بخار الخير والبركة، أحمل همّ أفواه جائعة معلقة برضى أنثى كنت أدعوها:

- يمّة..

واليوم أدعوها بحنين، حنين التي كوت بنا الحنين وجعلتني مشتتا في كل عواصم الحنين، سلبت كلي وجعلت من ما تبقى من كلي ورقا وحبرا، تارة أكبها وتارة أرسمها وتارة أبكيها وتارة أحيكها وتارة أروي محاسنها، وأنا الذي أعرف بأن هذه المرأة كل حياتها محاسن وحياتي آلام وأوجاع من بعد رحيلها، وحدها الأجساد تتبخر وتبقى الذكرى التي لم يود لها دواء إلا النسيان، والنسيان كذبة نحن أوجدناها من أجل أن نخدع أنفسنا.. كذابون بامتياز، وكل ما اجتزنا مرحلة من العبر نرى تلك المساحة التي غطينا بها عين الحقيقة أنها تكبر وتكبر كالغول الذي أفزع قبيلة بأكملها، لا ألوم تلك الأدمغة التي نست كل شيء من العمر من بعد أن كساها الشيب، الشيب ليس عيب، العيب أن تغطي الحقيقة بالأصبغة والأقنعة، ترى ذاك الذي

لقبناه بالخرف بأنه لا زال يتذكر شيئا من الماضي السعيد أوالمؤلم..

فمن المؤلم أن تتألم ولا تتعلم، وها أنا أتعلم من الذاكرة أشياء تأبى النسيان، محفورة على بطاقة الصدر كأنها بطاقتي الشخصية، لأعود مرة أخرى وأحمل الخبز..

أوزعها على الأفواه المشرعة للقمة خير، وما إن وزعت تلك الأكياس حتى شعت براحة عارمة لا يمكن أن أصف لك إياها، إنها رحمة الله التي وسعت كلّ شيء، أنظر إلى السماء الصافية في نهاية الربيع أرى نورا يسير على مرأى عيني، يدق أبواب القلب، يقرع بكل مهل، كنت دائما على مهل في كل أجزاء حياتي، ولكنني الآن أنا على عجلة من أمري، أريد أن أغادر هذه الحياة التي هي ألعن من الموت، ليس كرها بالدنيا، بل حبا بلقاء الحبيبة..

صوت يباغت الأحشاء، يتهجم على الفؤاد، يسرق اللب ويبدد الصدر، ويشتت المراح، كأن صوت الله في السماء يسري إلى مكامن الروح التي عجز العلماء عن وصف ماهيتها:

ـ ما الذي صنعك أن تفعل هذا الخير !، تطعم الفقير، وتكسوالعريان، وتؤمن على الخائب والخائف.. !!

ـ يا رب أرجورحمتك وأخاف عذابك، أشكوإليك شوقا كأنه حقل شوك، يخدش غلاف المهج ويلويني ألما.. !!

ـ وما هوذاك الشوق !؟

ـ رؤية يمّة، وكل ما تراه من خير ينفق فهوصدقة جارية في سبيلها ورحمة لروحها..

تبتهج السماء بنور ربها، وتحلق الطيور مغبرة في الفضاء، وتتفتح منافس النفس على هذا المنظر:

ـ أشهدكم يا ملائكتي أنني غفرت لها، وآنستها في قبرها، وجعلتها سلطانة في يوم الزحام، وجمعت بينها وبين ابنها في تحت ظل عرشي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم..

يا كرمك يا رب..

ما هذه العطايا في ساعات لها مزايا.. !!

أسير خلف ذاك الرجل الأبيض في زحام البرزخ الذي أشك بأنني في حلم !، وهل الأحلام تلمس أم أنها فعلا مصادفة للأقدار.. !!

الأقدار لها حكاياتها المشبعة بالنور، وأنا أسير خلف رجل مخضب بالنور، بهي الطلة، ملبس بالهيبة، جميل المبسم والملمس، الطيب ريحه، والوهج رسمه، والوقار سمته، مبلل

بالسكينة، مكللا بالجود، وكلما رآني استصعب الطريق يبتهج في وجهي قائلا:

ـ هل تعبت يا بني.. !!

ـ لا أبدا، فأنا سعيد جدا، لم أتوقع أن يكون الطريق بهذا القدر من الجمال والكمال ..

إنه الطريق..

الطريق الذي كانت تسير عليه في هذه الدنيا، طريقا محاط بالصمتو المهابة، درب هادئ تماما كحياتها الداكنة التي لا تشبه أي لون..

أريدها بألوانها الثنائية المختلطة بعضها البعض، أريد أن أشاهد صداها وهي تمشي في ذاك الممر الخالي من أصوت البشر، كنت أعتقد أنها ملاك يسير على أرصفة الذاكرة، تأكدت بعد وجع من الفراق ونيف بأنها تضاهي الملائكة بكل تفصيله نور..

إنها من فصيلة الأرواح الغارقة بالصمت، ونحن أرواح متألمة متوجعة توشك أن تنهار على ظلها من التناقض، جميعنا فتات لحظة عندما نفقد الأمل، وجميعنا يدرك تماما بأننا فقدنا الأمل في زلة قدم..

إنه طريقها الذي أحاول أن أسير به، أحاول أن أشقه بمقص قلبي، ولكن قلبي ينبض بلا جرس ولا صوت ولا همس، كأنه قطعة جليد وحلت على صدري..

باردة النبضات تأتي من كوكب التراب، تنهال علي صمتي المكبوت كي أتوجع، ولكنه الله الذي يخرس هذا الغضب في حال رحمة بل في وقت رأفة، وهو القادر على أسكات تلك المهزلة التي جعلتني كالمجنون أسير خلف خيالي، قالت لي

أساتذة الرسم في صغري ذات معرض للرسم في أحد فصول السنة:

ـ الخيال نعمة من الله، يقذف الله الخيال في صدر أهل الصمت لينجبوا إبداعا..

صدقتها وكان كلامها المطر على أرض مشتعلة لهبا، ولكن ما إن كبرت وتوجهت إلى زريبة المعاهد الشرعية في دمشق التي تلقن فنون الحفظ من غير أية وع، حتى يأتي أستاذ العقيدة المعقد الذي عقد أجيالا مقابل ليرات معدودات يأخذها من جيب وزارة الأوقاف بحجة أنه يعلمنا الوسطية، قال يومها:

ـ بإن الخيال أول خطيئة من خطيئات التشبيه والتحجيم والتمثيل في العقيدة، فلا مكان للخيال في الذات الربانية، مستندا إلى قاعدة حفظها عن شيخه وشيخه حفظها عن شيخه من غير أن يعلم العقل على ماهية النص المنقول ومن غير أن نفقه ما يجول فيه من منطق وأبعاد للعقل البشري:

ـ كل ما خطر الله ببالك، فالله بخلاف ذلك..

ما هذا التخريف والتزييف.. !

أعرف أحد الفرق التي أشعلت للنصوص عقلها، فرقة ألبسوهم ثوبا هو يليق بهم تماما، حتى حذر منهم في المجالس ودور العبادة وتحت أقبية الله .. المعتزلة..

فقط لأنهم يريدون أن ينزلوا النصوص في ميزان العقل، فأتى أهل الجمود والصمت وأخذ النص كما جاء من غير أن يفقه ويفهم ما به ليسلوا عليهم سيف الردة والتكفير والابتداع من غير أن يستمعوا للفهم السليم..

الجميع يخاف على مصالحه كالكرسي والوجاهة والنزاهة..

لا أحد يريد أن يعترف بالخطأ، لأن المجتمع المتعقل الذي نعيش به لا يرضى بالخطأ، فنحن ولله الحمد قد ترعرعنا في مجتمع أغلب ما به أنبياء ورسل وقديسين..

كذبة عاشت بنا، وأعتدنا عليها..

كذبة الرجل الصالح، والعالم الجهبذ، الذي يختتم ذكره بكلمة قدس الله سره، لا قدسية لأحد بعد أن عرفت أن القداسة تستحق لها وحدها، فقط لأنها:

يمّة..

إنه مولانا المرفوع عنه القلم، مولانا الذي عاش حياته خلف مقبض العلم والتعليم وتغير المجتمع من فاشل لأفشل، مولانا الحرامي ابن الحرامي ابن الحرام..

شفيت عندما حرقت ثياب المدرسة التي كنت أدرس بها، كنت أشعر بأنني أعيش في قفص، مكبل بكل ما هو مؤلم..

تحررت وعلقت على ألواح قلبي:

تحرر من كل شيء يأتيك كلّ شيء..

لم أعد أرغب بشيء، لم يعد يغرني شيء، أريد أن أشفى من الألم والوجع الذي ألم بي، وحدها الأفواه عندما تمضغ لقمة الخبز التي تسير في سبيل روحي تشفني من كل ما هو مفزع، حتى الألم أضحى أحد مقومات الحياة..

الحياة هنا تختلف في هذا الكوكب، إنه كوكب البرزخ الذي كنت أؤمن به واليوم هو مجرد من دماغي بل مجرد خيال، أكذوبة صنعناها وصدقناها، لا علينا ما دام كلّ شيء يسير على ما يرام هنا..

خلفه أحمل هم رؤية أنثى أشك بأنها أحد بنات البلد الصالحات، ولكن أن نمشي أربعة وأربعين عاما من أجل شيء ربما نصل إليه وربما لا نصل فهذا لعمري لجنون..

من الجنون أن تحيا في كنفها وأنت لا تشعر بها، أنت تأكل وتنام وتستيقظ وكل ما تريد تراه تحت ناظريك ولا تكلف خاطرك وتسأل كيف أتاك هذا الخير.. !!

هذا الخير يا حبيب أمك هو من عرق لا زلت لا تميزه، ولكنه هو يميزك لأنك من صلبه وجوفه..

لا زال شخيرك وريح فساءك يعج في البيت، الغطاء مجبول بعفنك، وشلال لعابك يسيل على وسادتك، والقرف الذي يتخلل

ثيابك الداخلية غارق بك ومنك، وأنت لا تشعر بما يجري خلف حلمك الذي وضعته على عاتقها هي..

هي وحدها من تحمل بك حتى موتها أو موتك، وحتى لو رحلت أنت فإن السواد ثوبها والحداد قد حلّ في قلبها، وأنت عبارة عن ريشة تحلق في السماء متناسيا سهرا من أجل مقلتيك..

عليك أن تستيقظ في الصباح أو بعد الظهيرة، ترى فطورك يملأ الطاولة، أصناف عدة وأطباق ملونة، ولو عرض هذا الإفطار على قارون لقال في ذاته أنه أغنى أغنى رجال الدنيا، ولكن عندما هبطت من رحمها مرغما عن أنفك قد حاكتك سنارة الله كي تكون رجلا سويا، تتعالى على تلك الأنثى ولكأنها هي كل مصائبك، بل هي سبب كل بلائك، تتعجرف وتتكبر عليها ولا شيء يعجبك:

ـ فقط هذا هو الموجود !؟

لا يعجبك الإفطار أبدا، لا الخبز الساخن ولا البيض الطازج، ولا مربى المشمش ولا الزيت والزعتر ولا حتى كوب الحليب الممزوج مع العسل..

أنت تريد زوجة عقور، جميلة بهية، لا تعرف للمطبخ دربا ولا للطهي سبيلا، كي تشبعك مكياج وعطر نسائي وطلاء أظافر، استمتع يا حبيب أمك مع الحبيبة، عندما تصحوا من غفوتك

ستجد بأن وزنك نقص وجلدك ترهل وعيناك قد حل بهما التعب وأنت ممدد بجانب ست الكل والجمال، سوف تعرف حينها بأن الجوع يتغلغل بك وينهش صمتك، كي تقول للحبيبة :

ـ ماذا سوف تصنعي لنا اليوم على الغداء..

المغناج صاحبة الملك آب والعطور والمكياج، الدلوعة ابنة البلوعة، التي لا تعرف تقلي بيضة يا أبو البيض، وحياة أمك اليوم لن تأكل سوى أكياس البطاطا المقلية الجاهزة التي يأكلها الأطفال، أو لوح شوكلا من دكان الجار عمك أبو أحمد، أو علكة يا روح العلكة..

العقوبة تأتي دائما من جنس العمل، أحب الأقدار عندما تدور وتدور وتأتي بك من قفاك متهم بتهمة العقوق، أفلام وحكايات رأيتها بأم عيني في الأحداث التي جرت في سوريا في الأعوام الثمان الخالية..

كان ستر الله مغطى علينا، كان وحده الله من يرقع تلك البيوت التي كنت أعتقد بأنها مثالية بمعنى الكلمة، ولكن الكلمة أضحت بلا قيم ولا مبادئ ولا ضمير، ثلاثون عاما وأنا أبحث عن الضمير في اللغة، ولكن لا محال..

كنت أنا والمحال نشاهد ذاك السيناريو المبكي المضحك الذي حرك شوارع الوطن وأفواه العوام الأغبياء كيف أضحى في قبضة رجال الدين..

لا أخفيك سرا، مع أنني تتلمذت على أيادي سفاحين الفكر والعقل من أبناء اللحى والعمائم الملونة ألا أن فطرتي العقلية

كانت سليمة مئة بالمئة، كنت ومع كل هذا الخراب الذي حل في عقلي وقلبي لا زلت أبحث عن نقطة الضوء كي أنجو من هذا الظلام، لم أنجو إلا من بعد أن خرجت من الوطن وانسلخت من أبناء جلدتي كليا، عام كامل وأنا أقلب صفحات الماضي وكلما مررت بمشهد من مشاهدها انتابني الضحك تارة وتارة أخرى أبكي بشدة على الغباء المركب الذي جلبته لنفسي، أنا المذنب الوحيد الذي لم آخذ بنصيحة أبي، ولكن التجربة علمتني درسا قاسيا جعلتني ألقى في السجون السياسية مدة عامين بسبب التقارير الملفقة التي كتبت عني من قبل رجال الله والدين..

نصف متر بنصف متر، أيام وشهور تمضي علي وأنا لا أعرف إن أقبل الليل أو ادبر النهار، كنت أفكر بها وحدها تلك المسكينة كيف حالها على فراقي.. !!

كانت متعلقة بي أشد تعلقا مني لها، كنت تنظر إلي بأنني أملها الوحيد الذي سيكون برفقتها مدى الحياة، ولكن الحياة أبرمت صفقت ود مع الموت والقدر وسحبت حيث التراب الذي أفضله في هذه اللحظة على الحياة وما بها من بشر وملذات..

كتب التقرير من رجل كنت أظن به خيرا وأرسل إلى المخابرات بتهمة سياسية بحتة كنت لا اعرف من السياسة سوى شاشة التلفاز التي تنقل لنا كذبة الوحدة العربية التي صرعونا

بها على مدى سبعين عام، ومن الغباء المركب بأنني لا أعرف من الصحف سوى صور السيد الرئيس وعقيلته السيدة الأولى، وبينما كنت أجهز أمتعتي للسفر غلى بيت الله الحرام لأداء فريضة العمرة، كانت أمتعة التقرير تحاك وتضبط باللغة العربية الوضحة، والواشي له أغنيته الجلية، والواشي الكذاب يبدأ بتقريره بالبسملة وينتهي بالحمد لله ومن ثم للأمن من أبناء الوطن المغوار وعلى رأسهم طبيب السيد الرئيس..

لا أعتقد بأن السيد الرئيس يعلم ما يحاك من تقارير ملفقة ضد أبناء الوطن، وأبنا الوطن يترصدون لبعضهم البعض، فكل يوم أسمع بأن فلان قد أختفى من بيته، وفلان أخذوه إلى جهة غير معلومة، وفلان ذهب إلى بيت خالته ولم يعد، فعلا أنا لا أعتقد بأن السيد الرئيس يعلم بكل هذه المصائب التي تدور تحت رحى المخابرات السورية..

أنا وأمتعتي على البوابة السورية الأردنية، أريد أن أخلص أوراقي كي أصل إلى السعودية، وفعلا يسرت الأمور من بعد أن ودعتها في معبر نصيب، كانت تنظر إلي وتقول:

ـ هذه المرة يا أمي أنا خائف عليك جدا، قلبي قبضني وجعلني أتلوى على هذه الرحلة التي لا تطمأن القلب والبال..

تعرف ما حدث وما سيحدث، كنت دائما أردد:

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

كلما شاح لي كرم الله بولاية ولي، وكنت أحاول أن أراه في خيالي كانت وحدها تأتني في ذاك الفضاء الشاسع الذي اهرب إليه من مصائب الدنيا ومكائدها الملتهبة كذبا وخداعا..

هل الولاية في بيتي ولا أنا لا أعلم.. !!

نعم إنه في منزلنا، سقطنا منها، وعلى يدها ترعرعنا، وفي كنفها كبرنا، وللأسف لم نعلم إلا من بعد أن فآت الأوان، كنت أردد:

ـ يمة..

كلما سقط في قلبي مكروه، كما كنت أناديها يمة كلما دخلت البيت، لا أريد منها شيء، ولكن لا شعوريا أندهها وما إن سمعت صوتها وهي تقول:

ـ نعم، أنا هون..

حتى يستقر قلبي وأعود إلى الحياة التي هي أقرب إلى الموت، كيف كنت أذهب في كل مساء إلى بعض الأصدقاء وأتركها للتلفاز والمسلسلات الدارمية.. !!

كيف كنت ؟

أسأل نفسي بين كل غصة ودمعة وأخور وجعا عندما لا أجد إجابة، أقف على عتبت الباب وأشعر بها:

ـ هل تريدي شيئا يمة !؟

مستلقية على الكنب المقابل للتلفاز، على وشك أن يغمى عليها من التعب، الطبخ والغسيل والتنظيف، أربعة فتية في البيت لا أنثى غيرها هنا، كنا ظلمة بمعنى الكلمة للمرأة، في تلك الثكنات التي نطلق عليها المنازل المبنية على الطمأنينة والراحة والاستقرار الاجتماعي، تلتحف آلاف البيوت نساء بسن اليأس لا بسبب العزوبة وقلة الحيلة، بل بسبب اليأس، اليأس من الزوج الظالم، والأولاد العاقين والأهل الحاقدين وهلم جرا من مجتمع ناز بأسماء عدة..

كالدين والعادات والتقاليد..

أسماء أوجدوها لاستعباد النساء وجعلهن تحت مخالب الرجال الذين لا يعرفون من الدين سوى حركات ونصوص تتلى من غير أن تفقه وكذب وخرافات وغيرها من وسائل للتجارة باسم الله..

العملة الوحيدة في ذاك الوطن المقهور من قبل الجبابرة من الذكور الذي لا يخافون الله ولا ضمائرهم ولا آخرتهم يتاجرون بالدين والعادات والتقاليد من أجل جعل الأنثى كبقية الدواب التي تسخر لهم ولأبنائهم من الذكور..

لا كرامة لأنثى هنا حتى لو كانت ملكة، كرامتها تظهر عند دفن زوجها، ولو كانوا الأبناء أبناء كلب لوجدها ماتت من بعد موت زوجها قهرا، وكرامتها أين يا ترى .. !!

في المزابل..

تحية إلى المزابل..

إلى حاويات القمامة التي جمعت أوساخ البشر، البشر عبارة عن مراحيض متنقلة في أحشائها القاذورات، بالنسبة لهذا المكان هو عبارة عن طهر كامل الدسم..

طهر لا يوزن ولا يباع ولا يشترى، بل المرء يجلبه له في دنياه كي يخفف من وطأة الغربة الكبرى التي غفل عنها كثير من أهل الكذب والحقد والكراهية..

في جيبي خمس مئة ليرة سورية فقط، جمعتها ليرة فوق ليرة من أجل حاجة أريد أن أقضيها، كان في قلبي لهفة لشراء كتب المفكر المجدد محمد الغزالي، سقط قلبي ذات قراءة لأحد كتبه في محط منطقه الرقيق، وجرني إلى أن أجمع كتبه في مكتبتي الصغير، مكتبة جمعتها في السنة الثانية لدراستي في المعهد الشرعي..

كنت عندما أعود إلى المنزل أضع الكتب في صندوق من الكرتون ومن بعد ذلك أضع الصندوق في العلية، كنت أخشى على الكتاب أكثر من خشيتي على نفسي، ولكن نفسي في قبضة الفراغ..

كنت سليما معافيا من كل هذه الترهات المعقدة والفلسفة المعقدة بين أبناء الطائفة الكبيرة التي تدعي أنها الأمة المنصورة، كيف لها أن تكون منصورة والهزائم تتوالي عليهم من كل حدب وصوب، هم مهزومين روحيا ونفسيا وفكريا، لا طاولة تجمعهم هنا على أنقاض التخلف والجهل سوى طاولة واحدة فقط، تتساءل الذاكرة ما هي المعجزة تلك التي سوف تجمع تشتتهم المحتدم الذي لن ينتهي.. !!

المنسف البلد باللحم فقط..

إنه المصلح الوحيد والمخلص المنتظر لكل شأن عظيم، فبوجود ذاك الطبق الذي يحمله رجلان أو ربما ثلاث رجال تقام الأفراح والأتراح وتحل أكبر المعضلات حتى لو كان دم مراق في الشوارع ولم يجف بعد فباللبن المطبوخ واللحم المسلوق والأرز المخمر بالسمن العربي تجف الدماء وتتبخر الخلافات لأن المنسف في حضرة المعضلة سحر لا يعرفه إلا أهل الأمعاء الطويلة التي تأكل ولا تشبع وتهرف بما لا تعرف، وتجازف الدين والأرض والعرض والدماء من أجل لقمة لا تسوى قشرة بصلة..

البصل مع الخبز بالنسبة لي هو أشرف بكثير من أن أبيع أفكاري ومبادئي من أجل لقمة حرام وخارجة عن قانون

الطبيعة، فهناك ثلة من البشر فتحوا في بيوتهم دواوين قد مدت بالبسط والسجاد الفاخر وعلقت على مساحات الجدران السيوف وصور الأجداد اللصوص أبناء اللصوص، ولا تستغرب أن يكتب أحدهم تحت صورة جده:

الشهيد ابن الشهيد.. !!

أنه فلكلور شعبي نعيشه ونكذب على أنفسنا من أجل تلك اللقمة ونصدقها لأنها من أكبر الكوارث البشرية، وتجتمع حول منقل اللص رؤوس الإقطاعيين من أبناء العشائر المعروفين بتحصيل أموالهم عن طريق السلب والنهب وتهريب المخدرات والبشر..

لا تستغرب أن تجدهم في الصفوف الأمامية في بيوت الله، فكيف يريد أن يخبئ اللص ضحيته !!، المكان الوحيد هو محراب الله وأنبياء الله، كثر الخبث واللغط وأصبح الحرامي أمينا بشاربه المفتول المصبوغ بالسواد الذي يتقاطر منه سم النجاسة، وبعباءته التي المطرزة بالذهب في مدينة رسول الله..

ولو سألته كم من مرة سرت إلى بيت الله الحرام، لتركك يعدها ويحصيها كي يتبختر علينا ويتبجح على فقرنا، كم فقير طرق بابه يريد مما أعطاه الله، ولكن الفقراء لهم الله ولا يريد لأمعائهم أن تتلوث من أموال أبناء الحرام، يا حرام على هذا الواقع المخزي الذي لا نستطيع أن نغير من حاله..

حالي آن ذاك أنني أريد أن ألتهم تلك النصوص من غير أن أعي ما بها، أدور حول النص ثلاثا وأربعا، أكررها وأنفر منها إلا أن الخوف من غضب الله يزيدني أصرارا على أن أمكث أمام النص حتى أحفظه..

أحفظ ولا أفقه، حشو وحشو وتعبئه فقط من أجل أن يقال أنه حافظ ويعرف ولكن لم أفهم ولم أعي إلا من بعد أن سقط كل ذلك في لحظة قوة..

القوة..

إرادة على أن أفهم ما يدور حولي، فكنت أذهب يوم الخميس إلى مقام السيدة رقية قبل أن أعود إلى المنزل، أجلس ساعة أو أكثر من ذلك تحت قبة المقام، من أجلد أن أريح عقلي من فوض الحياة، ولكن المقام غارق بفوضى الغرباء الذين قدموا من آخر الدنيا للحصول على البركة، كنت أبحص عنها تلك البركة في هذه البركة المتلاطمة بالسواد والحزن على آل البيت.. !!

بصمت أكتب هل وجد أحدكم البركة.. !!

كانت البركة في البيت، وكنت أنا هنا أنقب عنها في أجواء لم تعد تغريني، الروحانية المفقودة الآن، بركة على شاكلة أنثى، وفي محفظتي نقودا جمعتها قرشا فوق قرش، وقبل خروجي من

المعهد قاصدا ذاك المقام، كانت المعهد منتفضا وغيورا على دين الله..

و الله باسطا يده بالليل والنهار غير آبه لمن يغضب ولمن يحسن ولمن يعصي ولمن يتوب، وأنا أيضا جالس أفكر في الحوارات التي تدور في جحور ذاك الصرح الذي يخرج للأمة غمة حتى تعكر صفو السماء عن الدوران..

عيد الأم..

أجمع علماء الدين في معهدنا والطلاب والبواب وعمال التنظيف وبائع الشاي ومندوب المكتبة والسكرتير ومتسولا يجلس على بوابة المعهد بأن عيد الأم حرام شرعا وبالأجماع، ولكن أنا لم أجمع على هذا الأمر، لزمت الصمت لأن هذا ليس وقعي أبدا، كانت مشغولة بأعداد الحلوى والكعك والمعجنات، كنت مشغول بمراقبتها، كانوا أخواني مشغولين بجلب هدية تليق بها , كان التاريخ يكتب تلك النكسة التي وضعت بها نفسي في مأزق جهنمي مؤلم..

في مثل هذا اليوم من كل عام أسعى لأحضر لها هدية، أخرج من مصروفي الشخصي كل يوم ليرة واحدة من أجل يوم الأم، أنه عيد ليس كأي عيد، يضع أبي في أصبعها خاتما من ذهب:

كل عام وأنت بخير يا شمعة البيت..

يقشعر بدني من هذا النور الممزوج بالحب والعواطف الرقيقة، كانت في كل عام من هذا اليوم أشد رقة ورشاقة، تتأنق وتتزين وتتعطر ولكن لمن !؟

لنا نحن.. !!

أنها تعتقد بأنه عيدنا نحن، جمعتنا حول مائدة واحدة، ضحكتنا وبهجتنا، أنه أجمل يوم في حياتها، لأنها تعترف بأننا لا زلنا ننبض حبا لها ونشعر بها، وأنا لم ننسى تعبها..

أتعبني قلبي عندما سألني أخي الصغير في صباح ذاك اليوم، كان سكينا واخترقت صدري:

ـ أي أخي، ماذا أخضرت لأمك هذا اليوم..

السخرية باتت تلاحقني..

ومع أن أبي منع كل من في البيت من السخرية أو الاستهزاء بي، إلا أن الله وملائكته قد سخروا مني في ذاك اليوم وسلطوا علي أصغر أخواني كي يجلدني بأسئلته..

ـ لم أحضر لها شيئا..

ـ لماذا ؟

ـ هذا شيء لا يعنيك.. !!

كنت وقحا إلى أن أبهة اللطف اختفت مذ أن تخطت قدماي تلك الزرائب التي يلقن بها طالب العلم آداب طالب العالم، تبخرت الآداب، الابتسامة الرقيقة، الخطى الواثقة، الأدب الذي يسيل من خداي كقطعة جليد..

أضحيت عصبيا جدا، لا أستمع إلى أحد ولا أستوعب أحدا، الجميع اللطيف تسير بهم الأيام بكل عفوية زائدة، وأسير مع تلك اللحظات بكل قسوة، أنا في منعطف أخشى على نفسي منه، ألا هو الانزلاق بين الخيال والحقيقة، مضمرة الحقائق تبحث عن بصيص أمل كي أعود إليهم، أريد أن أضحك كما كنت في السابق..

علمنا بأن رفع الصوت حتى لو كان فضيلة هو نهيق كالحمير أنطلاقا من قوله تعالى : إن أنكر الأصوات لصوت الحمير..

كانت الحمير تنهق وتشبعا زعاقا على منابر الإيمان في كل جمعة، لا يمكن أتتحمل مكبرات الصوت التي صنعت على أيادي الغرب صوت النفاق..

وكنت أحب الهدوء، أهرب من نفسي غلى نفسها، أراها كيف تحوم البيت ممسكة بكل آلات التنظيف، تطهره من الغبار والأذى..

أيعقل أن الأفكار التي أحملها هي الأذى..

اكتشفت ذلك متأخرا، ولكن أن تصل متأخر خيرا لك من أن لا تصل، الوصول كان صعب جدا وصادم، حتى فجر عندي طاقة الكتابة، أن أهرب إلى الورق الأبيض بعيدا عن بياض العمائم وسواد اللحى..

هربت إلى غرفتي، أجلس على حافة النافذة، أتجسس على سعادة البيت، والفرح يلتهمهم كأن النبي جارا لنا والرحمن نوره حل في دارنا، عامرة الدار برائحة القهوة العربية، عامرة بغفوة الخبز والحلوى، البهجة تكاد تتكفكف من شدتها وحلاوتها، الراديو والتلفاز والشوارع والأرصفة والمحال التجارية والفقير قبل الغني يحتفل في هذا اليوم..

وأهل الضباب والسراب المنطويين في محارب الله تحارب الحب كأنه أحد أركان الكفر، تقدم الهدايا إلى على الطاولات، كان آخر ما أهديتها لها هو خاتم من ذهب..

ذهب الخاتم وأصابع الذهب..

ذهبت وذهب معها أجمل ما فينا، عيدنا رحل قبل أن تزف الأمهات إلى عالم الأمومة، ستشعر بها لاحقا، وصدقني أنني لا أحبك أن تشعر بها أبدا، لأن اليتم موجع جدا إلى درجة أن طبقة تفكيرك وعقلك ومشاعرك لا تتحملها..

أنت تتحمل أخطاء الماضي، الساعات التي قضيتها بعيدا عنها، الأيام الخالية من ذكراها، السنين التي جمعت بها ثروتك وأنت بعيدا عنها، وحدها من كانت قريبة منك، تسبح الله في الليل والنهار وأنت مقاطع لها، إن لها مع الله وقفة صدق وكسر في القلب وحدها من يعرف عمقه..

عرفت هذا الشرخ في عمق كل شرخ وجرح وكسر، كنت أظن بأن الله سيرمم كسرك، ولكن عرفت لاحقا بأن كل الكسور ترمم إلا العقوق..

العقوق لا يرممه مال ولا ثروة ولا أولاد ولا أحفاد..

مآسي تتلى آناء الليل وأطراف النهار أشاهدها بعيون المتبصر الذي يعرف معنى البر، قصص مجبولة بالبر والعقوق والأقبال والإدبار تلمحني وتلسعني وتضحكني وتبكيني..

البكاء على لحظة عيد مرت بها تلك الأنثى ولم أشاركها عيدها أضحى سجية بالنسبة لي، في خضم الحفل أطفأ الضوء على نفسي موهما الجميع أنني نائم..

كذئب أبرم صفقة رحمة مع دجاج القرية، يوهم الحي أنه نائم وهو في الحقيقة جبان خبيث، أشعر بالشفقة على نفسي وعليها، أسمع صوت حذائها بكعبه العالي يسري إلى أذني بل إلى غرفتي، صوت الباب له أزيز، أخبأ رأسي تحت الغطاء..

كذاب يهرب من الحقيقة..

رأس قاس جدا يريد أن يطأ على قلبه من أجل فكرة هو في الأصل لم يفكر بها، لو فكرت قليلا وتريثت وأمعنت بالمشهد لكان الجميع سعداء..

ولكنني سرقت البهجة من قلوبهم، هناك شيء ينقصهم، الطاولة غير مكتملة، هناك أنا لم أكن هناك، هناك وجع ينزف ويسيل من تحت أقادمهم، شرخ فكري جديد سطا على البيت يريد أن يغير البيت وما به من أفكار بلحظة واحدة..

لص اللحظات الجميلة..

مع أن السرور أوشك على أن يقتحمهم، إلا أن المكان الفارغ ينغصهم وينغصني ولكن بصمت، بصمت خفيف أيها الوجع، لا ترفعني حيث المتعبون من المسير وحدهم إلى السماء..

القمر، المخلوق الوحيد من يعرف معنى الوحدة..

لا أنثى قمرية ولا عائلة أقمار تجمعه، في كل شهر ينسب وينتصف وينشق ويكتمل وينكسف وينخسف والنجوم لا تلقي له بالا..

بالت الأفكار على وحدتي وخلوتي في غرفة معتمة، وحدهم الظلمة من يحبون الظلام، يخشون من الناي والكمنجة والكمان، أحجار البيانو تهزهم..

يخافون من الفرح من اللون من الرقص..

قبائل من المتوحدين على محاربة الحب تصطف في صف الصلاة كي يقتتلوا من أجل الله، والله غالب على أمره لو كانوا يعلمون..

كنت من الذين يعلمون أنها سوف تأتي، لا يمكن أن تفرح وأحد أبنائها قد طوى بتعاسة أفكاره منفردا، كنت اللعنة التي حلت على الدار، لأن مرض الحشرية أصابني، أتدخل بكل شيء..

مرض الحشرية المرهق، وحشو أنفي بشيء لا يعنيني، وأوامر أنزلها بصوت يصطك كجلد السيوف بالأمر والنهي، كنت لا أجرأ على أن أطفأ الراديو الذي تسمع أمي به صوت فيروز..

لأن الغناء حرام..

حرام الله علي البهجة والسعادة ومشاركة الأحبة من أب وأم وأخوة في الوقوف معهم أمام كل فرحة، ومن حرم على نفسه شيء فقد أتي شرا كثيرا..

بيدها تحمل صحنا من الكعك المغطى بالكريمة، تعرف أنني أحب هذا النوع من الكريمة البيضاء، تعرف أنني أحب المعجنات الحارة، وتعرف أنني كسرت قلبها في هذا اليوم..

كسر القلوب إثم..

وكيف لو كان القلب المكسور هو كلك.. !

أنت لن تفهم المعادلة القاسية التي جعلت منك رجلا ذو رأي يصول ويجول ويأمر وينهى على من علمك المشي على قدميك..

أول خطوة لك في الحياة، أو كلمة لك على هذه الدنيا، أول يوم دراسي، في نهاية العام الدراسي، في كل عيد ميلاد، في كل عيد فطر وأضحى، في المناسبات الرسمية والعائلية، قبل أن تريد وبعد أن تريد..

كلها محصورة فيك أنت، لأن السعادة التي ترسم على وجهك وتقتحم صدرك، وترسو على قلبك، وتستوطن ضميرك هي معقودة بسعادتها..

تريد منك أن يكون لك ضمير حي لا ينسى ولا تنسى، ستنسى أشياء أكثيرة ولكن التفاصيل سوف تلاحقك على كل شق حنين، بل على كل عتبة بهجة، بل على كل باب أمل..

أنت وحدك من ستمنحها هذه الطاقة الإيجابية حتى تفرح، فرحها مكتوب عليه هذا الفرح معلق بفرحك أنت، ليس لأنك أبنا لها وحسب، بل لأنك أنت أنت..

هيا قم من سريرك واطرد هذا الظلام من غرفتك، وأكشف ذاك الغطاء والقناع وعد إلى قناعتك كي تحيا من جديد..

الجديد هو أنت، غريب بينهم كأنها لم تنجبك، كي يقال عنك واو أنت ذو شأن، تبا للمراتب التي تجعل منك حدا تفصلها عنك..

مولانا الكاذب..

الأم أنزل الله بها قرآنا يتلى أناء الليل وأطراف النهار، ولكنك أنت من أهل الظلام والظلال وأشباه الرجال..

أباك يحتفل بها لأنها حبيبة له، أخوانك يلتفون حولها لأنها يومها، ويومك أضحى شبح يجتث ذاكرتك، ما هو الحرام في ذلك.. !!

الحرام أن تنهى عن شيء لم يوضحه الله ولا رسوله، هل تعتقد نفسك أنك رسوله **!!**، فعلا أنت مرسلا من قبل الشياطين، لتكسر فرحة كنت تحتفل به كل عام..

هذا العام يختلف عن بقية الأعوام لأن الشرخ ينزف من انطواءك وتخلفك عن سعادتها، وسعادتها تبحث عنك تفتش عن بقاياك المحطمة في قاع البرد الخالي منك / منك لله فأنت حر أولا وآخرا..

خمس مئة ليرة سورية، جنيتها من أجل فكر الغزالي الذي ستعلم فيما بعد بأنه سوف يحررك من قيود الأمر والنهي، دائما في ذاك الزمن الخصب بالصمت كنت أقول:

أين كان عقلي.. !!

لا بد من أن هناك خلل كبير قد ألم بك، وأنت يا مسكين تقف الذاكرة فوق رأسك كي تسجل وتحصي تطرفك الجائر الذي بالفعل بلا معنى..

المعنى هنا بأنك ماذا فعلت بالمال **!؟**

اشتريت لها غطاء أبيضا للصلاة، كانت كلما مرت بالسوق تقف عند ذاك الغطاء الأبيض الناصع الذي يضاهي قلوب العلماء والأنقياء الذين لوثوا قلبي بالقال والقيل والجهل المركب البعيد عن العقل..

وماذا أيضا **!؟**

أمرت صاحب المحال أن يلف لي إياه بورق هدايا وشريك فيروزي، نظر إلي صاحب المحال وابتسمت:

ـ هل هذه هدية عيد الأم..

وقفت في الحلق دمعة مشربة بألم هذا الكون..

دمعة مشابهة للحداد، كلون البنطال الأسود الذي اتخذته شعارا لي، تمخض القلب كي يقول الحقيقة، نطق اللسان بكل ما هو

موجع، وعيناي تترصدان الأزقة كي لا يراني أحد من مرتزقة المعاهد الشرعية ويبدأ بالسؤال والقال والقيل:

ـ نعم إنها هدية عيد الأم..

لامست رحي ابتسامته الجميلة، كان رجلا مسنا ذو لحية بيضاء، ملتزما بسبحته الرقيقة، يجلس خلف طاولته القديمة التي ربما ورثها عن أبيه وأبي أبيه:

ـ أنا سعيد لسماع ذاك الرضى الذي يخرج من فتى على ما يبدو أنه ملتزما في بيوت الله..

ـ أنا طالبا في معهد العلوم الشرعية..

كان مكتوبا على غطاء الصلاة سعر الغطاء ب 500 ليرة سورية.

كانت مكتوب على صمتي المبحوح سعري قشرة بصلة، وربما قشرة البصل أغلا ثمنا..

أخذ مني المال، أمسكها ونظر إلي نظرة حادة ولكنها فيها نظرة أبوة باهتة، رجلا بسن الموت، شبيه ألبسه الوداع رغما عن أنفه، وأنفي كان شامخا متكبرا على البشر لأن معي مفاتيح الجنان كما كنت أظن..

كان ظني أحمقا، وتناسيت بأن بعض الظن إثم، ولكن كان ظنا مقاربا إلى اليقين، مشابها للموت المقت ولرحيل المؤثث،

انطوائي لأبعد ما تتصور، ليس لي صديق، لأن الحرام بين والحلال بين وبينهما أمور متشابهات، كنت أنا وأفكاري أعظم شبهة لنفسي قبل غيري..

وكانت غيري يتهامس من بعيد، ومنذ ذاك الزمن البعيد وأنا أشعر بالخوف من كل الناس الذين حولي، حتى انعدمت الثقة عند أقرب الناس لي..

بيده المال الذي جنيته، وبيدي الهدية التي اشتريتها، أريد أن أرحل حيث الرياح الهادئة، بل مع أذان جامع بني أمية الكبير، بل مع ضجيج المارة وزوار آل البيت، تركته وأنا أودع صمته:

ـ شكرا يا عم .. السلام عليكم..

ـ العفو يا بني .. وعليكم السلام..

سمعته من بين الرؤوس المخمرة بالسواد والبياض:

ـ بني تعال..

سرت إليه ببطء، سارت معي حواسي المتصلبة:

ـ نعم يا عم.. !!

ـ خذا هذا خصم لك..

ـ ولكن غطاء الصلاة سعره 500 ليرة سورية.. !!

ـ ولكن رضى الأم يا يضاهى بثمن..

تعب قلبي وسقطت باكيا، ترك خزينته ومكانه وجرى إلي كي يقفني على قدمي، ريحه المسك يتمتم بالأذكار والصلاة على النبي المختار:

ـ قف على قدميك يا بني..

ـ شكرا يا عم، وجزاك الله خيرا..

ـ يا بني الدنيا زائلة، ومن كانت له أما فليتمسك بها بالنواجذ..

النواجذ كانت قاسية..

حتى فتح يدي جيدا ووضع المال رغما عني..

هكذا الحياة هي رغما عني تسير وتدور، وحتى لو فكرت بدورانها أو رسوها فأنها لن تأبه لتفكيري، كل تفكيري بأن الله له جنود على الأرض تظهر الرحمة وتمحو سواد القلب وتجعل من الروح ضبية تعود إلى ربيعها..

تركت الرجل وسرت إلى البيت من غير أن آبه للمال الذي أعطاني إياه، ما قيمة المال أمام تجريدي من منطقي الأعوج من رجل أشترى الرضى بمن غير مقابل، القناعات دائما بحاجة لتجديد مع تغير الزمان، فهناك فئة من البشر لا زالت تظن بأن الحجيج تسير إلى بيت الله الحرام على الدواب، وهناك دواب تفوق هذه الفئة من البشر فطنة وحنكة، وهناك أنا أتسلل إلى غرفتي كي لا تراني أمي أحمل لها غطاء الصلاة، وحتى لا تسألني ما هذا الذي تخبأه بالكيس..

هي ليست فضولية ولا أكره أسألتها ولكنها تخشى علي من كل شيء لا من أجلها بل من أجلي، في مطبخها مشغولة بإعداد الحلويات ومتطلبات هذا اليوم العظيم، وأنا منتصب بين حبي لها ومخالفة الشرع، وبعد مدة من الزمن الملوث بالدماء عرفت بأنني أعيش في وهم صنعته لنفسي كي أسد ذاك النقص:

إنها كذبة..

ضحكت مليا على نفسي، وتعبت كثيرا، وكنت أنا الدرس والتجربة والضحية وما تضمخ من بعد ذلك من أمور أنا أعلمها..

كنت أنتظر أن يذهب عيد الأم كي يأتي اليوم الذي بعده كي أقدم لها هديتي بعيدا عن أعين أخواني، وأيضا تخطيا لكل ما هو شبهة، عاد قلمي إلى الشبهة لأن ما كنت أجنيه من أفكار كلها شبهة..

أسمع يا عزيزي، وأعلم جيدا بانك إن كسرت قلبا يحبك وأجلت ترميمه وصيانته إلى اليوم الثاني فإنك قد قتلته عمدا متعمدا، وأزهقت روحه بسبب وبلا سبب..

عليك أن تبادر، ولا تجعل من نفسك عليك سلطانا، فلتكن الرحمة والذاكرة الجميلة والقلب الناعم المشبع بالحنين هو سلطانك..

كانت تردد أمي:

ـ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين..

هل أمي كانت تفهم مراد الله وأنا لم أفهم مراده.. !!

حياتها رغم قساوتها كانت رقيقة وجميلة وسعيدة..

لم يكن عندها كثيرا من صلوات النافلة ولا النذور ولا الصدقات ولم تشكو من هم ولا من غم ولا من تعب، ولكن أتى من يتعبها ولم تقل يوما من الأيام بانك أتعبتني، ولكني أشعر بها وأنا أذهب إلى صلاة الفجر وحدي قاصدا المسجد، تستيقظ تشعل النور تأتني:

ـ صلي هنا يا أمي.. !!

كنت أظن أنها تأمرني بشر، كانت تخشى علي من أولاد الحرام الذين يجوبون الشوارع، أو من مخالطة الفتية المتعصبين والمتورطين في سياسة معينة..

لا أخفيك سرا كان الفتية يحاولون أن يشدوا غطائي نحوهم، ولكن غطاء الله أكثر حماية ورحمة ورعاية، وكلما كان ياتني شابا لينقل لي مرضه الطائفي المحموم بالكراهية، كنت أبتعد عنه لا إراديا كأن هناك حجابا بيني وبينه، كأن هناك من دعا علي أو بلغة أصح دعا لي، أعود من صلاة الفجر أفتح شق الباب الذي يزن، كنت كل يوم أقول سوف أزيته كي لا يصدر صوتا وأسبب إزعاجا للنيام، كنت أقول في نفسي كم محرومين أهل البيت من هذه الروحانية، وكانوا يستيقظون بعد أن تطلع الشمس ولم يكن لديهم أي عقد نفسية أو أي تعب..

كنت أنا وحدي المتعب من كل التناقضات، وكانت هناك يمة قد فردت سجادة صلاتها تدعو بصوت مسموع:

ـ اللهم أبعد عن أبني أولاد الحرام..

كانوا بالفعل أبناء حرام، أبناء حرام بمعنى الكلمة لأن هذا القلب لم يعد يتحملهم أبدا ولا يتحمل همجيتهم الدعوة التي تدعو إلى التنفير لا إلى التبشير..

شياطين قلبا وشكلا وقالبا..

فزاعات قذرة تجوب الشوارع وتقف على أبواب المساجد، ضياع فكري وعقلي وأخلاقي لأبعد ما تتصور، يهددون ويتوعدون ويصولون ويجولون ويحسبون أن الجنة لهم، ونحن نار الله الموقدة وأهلها أيضا..

كانوا انتكاسة مؤلمة للذاكرة..

إلى هذه اللحظة هم في ذكرتي يعيثون بماضيي فسادا..

تلاحقني وجوههم السرطانية، وألاحقهم بالكلمات كي أدميهم كما أدموني، سبعة عشر شاب بحاجة إلى سبعة عشر رثاية عنهم وعن خبثهم القذر..

استحي دائما من المستقبل عندما يمد لي طريقه بمجرد أنني تحررت من كل ما هو ممنوع، ولكن أول ممنوع ومشبوه في وجه الشرع طرته في تلك الليلة التي أضحت أحب الليالي إلي..

هدية باردة داكنة ناصعة ياسمينية في خزانتي، شراشف طهر وإيمان، ورب راض غير غضبان مستو على عرشه يراقب البيوت المحتفية بأحد أركانه المعقودة برضاه، ولكن هناك خلايا مشبعة بالعقد عندها أدلة واهية كاذبة خداعة ماكرة ماجنة لصد كل ما هو سعيد ومفرح..

النصوص تهبط من السماء إلى رجل أنزل في حقه كنتم خير أمة أخرجت للناس، وهناك فئران أيضا يحملون هذه النصوص على مزاجهم وعلى حسب الجيب ومخازن الغيب، فالغيب مساحته شاسعة وكبيرة والمال وما سقط في الجيب هذا لهم ومن حقهم..

مالي ومالك هو جزية لهم فلا تفرح، وأختي وأختك هي سبية لفراشهم فلا تسعد، وعقلي وعقلك هو في كفة نصوصهم مغلقة ومؤصدة ومشمع عليها بشمع قد جلب من مكة والمدينة..

ومكة والمدينة براء منهم كبراءة الذئب من دم يوسف.

و نحن كلنا في جب الحياة مظلومين من قبل أخوتنا، القوا بنا في غياهب الكفر والردة، ونصبوا أنفسهم أوصياء علينا يسرحون ويمرحون ويصدون عن قانون الطبيعة والحياة، فالأرض في عقيدتهم مسطحة كفكرهم تماما السطحي الذي لا يبلغ الحلقوم، وأنا ورأس مالي هو عقلي الذي ولته أمري لا عواطفي

وخرافات كنت أرتوي منها كي أرضي بها فزاعات الأمة الموقرة..

طز بالأمة الموقرة التي تقوم على تحجيم العقل والمنطق بحجج مبنية على مكاسبهم ومصالحهم الشخصية لا كما يريد العدل والحق والمساواة، كيف تريدني أن أثق بشخص لا يثق بزوجته ولا ببناته ولا بأي أنثى من أهل بيته..

يلبسها كما يشاء ويخرجها متى شاء ويدخلها متى شاء ويزوجها لمن يشاء ويطلقها متى شاء، ويبيعها في سوق المهور ويشتريها من حضن وليها ويستند إلى نص يقول فيه:

الرجال قوامون على النساء..

هي وحدها من كانت تقوم علينا، تدور بمجرة حبها حول نفها وحول نجومها الصغار، كانت ترى فينا أحلام كبيرة، كبيرة جدا، أكبر من هذا المجرة التي نعيش بها..

معجزة جميلة جعلتنا تعيش بنا، تتنقل معنا حيث هذا العالم الملوث بنجاسة البشر، نخبأها في ذاكرتنا وفي حقائبنا كي تتلوث من ثاني أكسيد البشرية..

أن تخبأ أنثى في لب قلبك هذا يعني أنك تتميز بجاذبية العظمة، عظمة الحب والشوق والحنين، عندما أعرف أي أحد يكثر من ذكر أمه أمه أعرف أن قلبه غارق بالحنين، وحدهم من يذكرون أمهاتهم بخير..

أثق بهم..

تعند ثقتي بالمعارف والأقارب وهلم جرا من أناس وضعوا بصمتهم في صفحات حياتي عندما أعرف بأن هذا الشخص لا يقيم لأمه وزنا، مباشرة ومن غير أية مقدمات أحذفه من قائمة الصداقة وأفعل له بلوك رسمي بأسمي وأسم الأمهات المعلقات بحب طفل كان بالأمس يسبح في حضنها ويسحب رحيق راحتها واليوم أصبح له شاربا يدب ويهب ويأمر وينهى تحت قبة رجولته..

أصبح رجلا أخانا الجبان..

رسم الله على وجهه شاربا، وأرخى الرحمن على ذقنه لحية يجملها كيفما يشاء والطريقة التي يشاء، له صوت جاروش كآلة طحن الدقيق، هو لم يدقق بالأيام كيف صنعت منه جملا له سنما تتعارك عليه فتيات الحي والجامعة والعمل، وتناسى تلك الأنثى التي أرهقها السهر، مع من يسهر الآن يا ترى.. !!

مع صاحبة الحسن والجمال التي دخلت بيته رغما عن أف أهل البيت، أدخلها حبا للمعة قدمها، وأخرج كل من في البيت رأيه خارج حرم شهوته..

أشتهي سيدي الضباب كما تريد، إن الأيام لها جنود فتاكة تطحن الرؤوس القلوب القاسية التي رأيت ثلة منها كيف دهستهم الأيام بحادث قدري مروع..

أنها بداية البلوغ..

البلوغ المرعب المتخبط الذي يمر به كل إنسان، هنا يوضع كل اللوم على المجتمع الذي لم يتقبل هذه الثلة البرزخية وطباعها المتقلبة، وآلة التجسس تهرس وتسعف وتأكل الأخضر واليابس، الأهل يسالون صاحب المزاج المتهور الذي أشتعل في وجهه البثور وحب الشباب ونبت بين فخذيه شعريات هو مستغرب

كيف نبتت ..إنها نبتت يا حبيبي، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا..

بعد أن سحبت روحها عرفت كل ما كنت اجنيه من تهور وقساوة رأس، كنت أعتقد بأن الإيمان بالله ورسوله وأولياء الله الصالحين سوف أنجو من لعنة هذا التخبط الذي يطلق عليه سن المراهقة..

سمعت جارتنا في ذاك الزمان الذي يغلب عليه اللون الأبيض والأسود، بأن أبنها جعل منها أنثى ومجنونة في نفس الوقت، جارتنا أم أحمد المرأة الطيبة صاحبة الخدود المورمة الوردية والشال المعقود بين صدرها المنتفخ وذقنها المضلع، وشعيرات قد نبتت على أطراف شاربها، ربما الوقت لم يداهمها كي تلتقط تلك الشعرات، ربما داهما سن اليأس من الحياة ومن الفراش ومن الأولاد..

جعلوها تكبر قبل موعدها، كان موعدها قصير جدا، والدنيا أذابتها حتى أضحت كالبرميل تأكل الأخضر واليابس، لم تعد تعتني بنفها وأناقة ثوبها..

أضحى ثوبها كالعلم الأمريكي جميع من في الحي يعرفها من ثوبها الذي أكاد وأجزم بأنها لم تعد تغسله، ولكن الأمل الذي

جردها من الراحة غسلها بمياه التعب والكدر حتى كدر عليها حياتها أبنها أحمد..

تبا لأحمد وكلما أتى في ذاكرتي أشتمه وألعن شكله..

ـ خير يا أم أحمد.. !!

أمي تعرف ما بها أم أحمد، وكل التفاصيل في جعبة أمي، ولكن تريد أمي منها أن تتنفس وتشكو ما في قلبها هذه المرأة:

ـ كل وخير يا أم ميسم..

تتنهد أم أحمد، تستنشق الهواء الدافئ في يوم صيفي، في يدها فنجان من القهوة السادة الخالية من السكر، أبناء وزوج حيوان جلبوا لها داء السكري، هل تعتقد أن السكري وراثة.. !

لا يا حبيب أمك، بل هو ضغط نفسي وحزن واقعي يلم بالمرأ حتى يطحن كذرات الذرة، فأما يكون زيتا يقلى به وأما أن يكون دقيقا يعجن ويخبز ويقدم قربا للنار كي ينضج من أجل أفواه ناكرة للجميل، الجميل في ذلك كله أنها لم تشكوا لأحد عن ما فيها من مصائب وجميعنا يعلم ما بها من كوارث، لأن صوت أبنها الحمار ابن الحمار دائما يملأ الحي زعقا ونهيقا..

قبل ثلاث أيام من قدومها إلى أمي، فتح نافذة البيت وألقى بالتلفاز إلى الشارع، ولوى ستر الله وكرمه لكان وقع على رأس

أحده وجعل منه هباء منثورا، ولكن ولحسن الحظ بأن الشارع كان خاليا من المارة..

لو تعرف ما هو السبب لأورمته ضربا على جسده..

ـ ماذا طبق اليوم..

جالس في البيت يشاهد التلفاز، رائحته قذرة، لا يعمل ولا يدرس ولا يفقه من هذه الحياة سوى رفقة السوء وتبا لرفقة السوء، محاط برائحة السجائر، يسرق المال من جيب أبيه أو يتصدق عليه أحد رفقاء القذارة بعلبة سجائر ويلتهما في لحظة صمت مباغت:

ـ طبخت شوربت عدس وبطاطا مقلية..

لا تلومها أبدا، هذا هو الحال، من الجدير بها أن هناك خادمة تقف في المطبخ أربعة وعشرين ساعة من أجل أعينكم، وتبا لكم ولأعينكم:

ـ أنا قلت لك يوم أمس أن تطبخي محاشي.. !!

أنت فقط تقول وتأمر وتنهى، متى آخر مرة بدلت ثيابك الداخلية، أو خلعت جواربك التي عافتك وعافت دمغك الدكتاتوري، طبعا لن تفهم هذه المعادلة وأنت غارق في مستنقع من التطرف الزائد عن اللزوم، ومن اللزوم أن أخبركم بأن صاحبنا بل صاحب الشياطين أحم دبيك سنه سبعة عشر عاما..

سبعة عشر عاما أكبر الشبان وحمار البيت والطامة التي حلت عليهم من حيث لا يحتسبون، هم يحسبون الوقت متى يدخل ومتى يخرج من البيت، فعندما يغادر المنزل تسبح العائلة شكرا لله على خروجه، وطبعا بعد أن يعود هناك مصيبة قد فعلها مع ذاك اللفيف الأحمق ..

هو أحمق..

ولكن عيار أربعة وعشرين:

ـ أنا لا أحب حساء العدس.. !!

ـ هذه البطاطا المقلية..

ـ أنا أخبرتك يوم أمس أنني أريد محاشي.. !!

ـ ولكن لا يوجد عندي مال حتى أحضر لك مقادير هذا الطعام الباهظ الثمن من لحم وكوسى وأرز.. !!

ـ دبري حالك..

ـ أذهب أعمل وأحضر المال وسوف أطهو لك كل الأطباق التي تريد، والحلوى التي تشتهي.. !!

شتم الله والأنبياء والأولياء ومن في البيت وتفل في وجه أمه وسبها، ولكنها لم تتمالك نفسها حتى ضربته على وجهه بكل ما أتيت التعاسة من قوة:

ـ تضربيني.. !!

جن جنونه، وركبه ألف إبليس ودفعها بيده القذرة حتى آلمها، وأمسك بالطنجرة ورماها حتى تلوثت جدران المطبخ، وعاد إلى غرفة الجلوس وأمس التلفاز كانت النافذة مفتوحة وألقى به من الطابق الثاني إلى الشارع.. !!

أنه ابن الشوارع .. وأباه أشد نذلة منه..

خرج من البيت كان أباه قادما من شركة الهاتف التي يعمل بها، وجهه وجه بومة وشعره منكوش كحقل جزر اقتحمته قبيلة من الأرانب البرية، على السلم الحجري يصعد بحوافره، بدب بها دبا مقلا من الظلم الذي ألحقه بزوجته، له هوايات متعددة، سب الله وشتم الأنبياء وكتابة التقارير بالناس الضعاف، كان مخبرا مخضرما لا رحمه الله، أهل الحي يتجنبونه ويجاملونه لأنه علاقته بالمخابرات لا يستوعبها منطق، كان المنطق هنا قد تبخر وأضحى هباء منثورا لحل الجنون على أبنه الوقح:

ـ لماذا رميت التلفاز من النافذة.. !!

الجواب كان صادما:

ـ حل عن ربي أنت الثاني..

هناك مثل سمعته من جدتي كان ينطبق على الأب وأبنه:

فرخ البط عوام..

أي أن الابن شابه أباه وزيادة، ماذا تتوقع من رجل لا يحتر مشاعر الآخرين، لا يدور على لسانه سوى الكلام القذر الذي لا يليق برجل قدماه الاثنتين في القبر، هيكل عظمي مبطن بجلد أفعى، ولكن كرشه اكبر من رأسه:

ـ هذا الكلام لي.. !

ـ لك ولأكبر منك..

حاول الأب أن يصفع أبنه على وجهه، ولكن الكر الصغير دفع أباه الحمار أرضا حتى تدحرج من الدرج وسال دمه من بعد أن شج رأسه:

ـ أنا برويك يا ابن الحمار..

ـ أشربي قهوتك يا جارة..

الجارة محملة بالألم، لو رأها كلب لأشفق عليها، كانت لا تذهب إلى احد البتة، تأتي إلى أمي فقط، لأن تعرف أنا في هذا البيت هناك دفئ، قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار، يفتتح فجر بالأذكار النبي المختار، وتخرج الشمس على صوت فيروز وقهوة أبي، وفي المساء هناك مساحة مفرغة لصوت كوكب الشرق أم كلثوم على كلماتها التي ختمتها يوم أمس تحت عنوان: فات المعاد..

هو لم يفت أبدا، ولكن الحياة فاتتها، وجعلت منها جسدا بلا روح ولا مشاعر، تدب على هذا السراب بما تبقى لها من دماء تسير في حركة مغايرة لحركتها حتى أرداها المرض والتهمها سرطان الدم، حملت أم أحمد إلى مشفى المواساة لن يواسي صبرها احد غير الله..

الله وحده قادر أن يخلصها من هذه الحياة لم يعذبها أبدا لأن جنان الصبر معدة لها، سحب الرب روحها تحت تأثير أول

جرعة كيميائية وقبل أن يسقط شعرها سألت أمي بعد وفاتها بأسبوع:

ـ هل سقط شعرها.. !!

ـ لا يا يمة لم يسقط ولا شعرة..

ـ يا الله .. وكيف ذلك ؟

ـ لأن الله يريد أن يقابلها بشعرها..

عرفت الله بعد عامان من التتلمذ على علماء دمشق عن طريق حدس أمي، أعطاها الله صمتا تعرف من خلاله معنى الحياة ولكن الحياة أفلتت يدها في الوقت الذي كنا به في امس الحاجة لكفها..

كفها المضرم بالحنان، أصابع ملائكة الله، راحة يدها التي تشبه راحة يدي، لم تخني الذاكرة عندما كنت اجلس معها عصرا وحدنا، أضع رأسي على فخذها تروح تمرر يدها على شعري القصير، وتمسك كفة يدي الناعمة جدا، لدرجة انك إن لمستها ستقول بأن هذه اليد لم تشرى شقاء يوم..

يا أمة الكلمات الجارية نحو الضباب لا تعقدوا شقاء الناس بنعومة أجسادهم أو خشونتها، هناك قلوب مشوه فيها الجراح، تتقاطر خشونة وتعاسة:

ـ ما اجمل يدك .. كم تمنيت لو أن لدي أصابعا كأصابعك.

أصابعي اليوم التي كنتي تتمنينها اليوم تنتمي إليك، تشبهك وتشبه كل تفاصل ذاكرتك، مولعة بالشوق والحنين ولجلسة بعد العصر ولصحن التين..

كل ما بي من أصابع يجري من تحتها دماء قد توقفت مع توقف نبضك هو لك، وأنا التعيس بين الفواصل التي تفصلني عنك وعن مساحة الخطوات المتعبة من المسير..

الثقة وحدها اليوم هي التي تكتب تفاصيل أنثى أذابتني وذوبتني وجعلتني أعصر الشوق في معاصر الورق والحبر حتى سرق لبي وفقدت عقلي وأضحيت مجنون يمة..

لا أنثى هنا لتهز ما تبقى من رمق، فكل المشاعر مؤصدة بالحنين تشتاق وتهوى وتسابق الهوى نحو التراب، لم أجد في تاريخ الأمة أشتاق أحدهم للتراب..

ليس من أجل ذرات التراب، بل من أجل ملاقاة الأحباب، ها أنا لا زلت في عالم البرزخ أحلق وحدي مع المدى مهددا بالبقاء هنا أربعة وأربعين عاما من أجل عين الفضول..

أريد أن أرى أنثى ماذا صنعت حتى لأعطيت كل هذا المجد الوفير، وأنا الذي دائما أبحث في سجلات الماضي والحاضر عن بصيص حب كي أكمل المشي وحدي في درب مظلم وموحش كل ما به من أشباه بشر هم كالحجارة أو أشد قسوة..

قالت لي يمة ذات يوم إياك وأن يزل لسانك في وجه أحد من أقاربنا، فإن من يزعجهم يزعجني، وذاك في الوقت الذي كانت فيه على قيد حياتنا نحن، لأننا كنا نرى أنفسنا أننا أحياء..

نعم إلى جماعة لم نكن أحياء، نحن كنا أحياء بها وتبا لكم ولحياتكم لأننا من بعدها أضحينا أموات ولكن تحت سجل وو لن تنفعكم حياتكم أبدا..

أحب كل من يحبها..

أتقرب إليه كأنني أتقرب إليها..

أعشق النظر في وجهه كأن الوجه وجهها..

إياكم وأن يكسر أحدكم قلب أخت من أخواتي أو أن يخدش كل من ينتمي إليهن، ووحدها تلك الخالة التي أعشق الجلوس معها، التي لم تفارقها حتى فارقت الحياة، وللأمانة بأنها لم ولن تفارقنا لأنها تعتقد بأننا أمانة في عنقها، ودائما تردد:

ـ نارك فراقك حامية يا أختي، وضعتي في عنقي أمانة لا تحملها الجبال..

كانت أكبر منها سنا بكثير، ولكن السماء والقضاء والقدر هذه الكماشات التي علقنا عليها كل ما نعلمه عبارة عن أدوات ظالمة بمعنى الكلمة، ولأن الكلمة مفقودة هنا ويجب علينا أن نضع النقط على الحروف كان كل حرف من أسم يمة عبارة عن بركان يغلي معنا أينما أتجهنا..

جهنم هي كذبة ألزمناها للأموات بعد الرحيل، ولكن لو دققت في فلسفة حنين الأحياء بعد أن يفقدوا حبيبا ستجد بأن تلك النار المتقدة بغضب الله تحرق الأحياء..

على منقل الحنين نشوى يوما بعد يوما تسألنا قلوبنا متى سنأكل ونكون في معدة الأرض، تجب الأرواح : لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا..

خالتي سميرة..

كنت أمشي بجانب الرجل الصالح الذي أطلق على نفسه العمل الصالح لأنثى يبعد عنها أربعة وأربعين سنة، يعيش على أرض هي ملكها، جبال باسقات قد اخترقت الغيوم وشقت زرقة السماء الفيروزية، لطف مدلى من الفضاء كعناقيد الحب تمطر على النفوس راحة وطمأنينة، وخطوات واثقة تجر نفسها من غير تعبا ولا نصب..

و كلما تقدمنا في المسير توهجت الوجوه وأتسع في الصدر فسحة من نور، وتعرقنا مسكا وعنبا وعطور، وكثرت الفراشات التي هي أقرب إلى النور، ما هذا يا سيدي يا من تتكأ على الصخور.. !!

كانت هناك على مقربة منا غابة من قصب السكر، غاصبة شاهقة ومرتفع كل ما بها من جمال لم تره عيني قط إلا في هذه اللحظة، واهتزت العيدان مصدرة صوتا من طرب متناسق، نوته تدفعها نوته كسبحة الرحمن قد أسدلت من بين أصابع

الرياح، تقتحمها زوابع اللطف الخفي وتنتزع منها الهدوء الخصب كي تروي للآذان الخائرة ترانيم عشق في حضرة الله..
في حضرة الله تقوم في نفسي أسألة مصطفة ومتدافعة ومنافحة عن حقها، كنت دائما أتساءل والإجابة مؤصدة ومغلقة في وجهي وأمام شاجعة العقل البشري كأن أقول:
ـ أنا ماذا أريد.. !!
كل الذي كنت أريده بقايا كرامة، شيء من الحنين، لمسة حب ،كفة ود، ويمة .. كنت ولا زلت مستعد أن أقلي بكل هذه الأشياء من أجلها، من أجلها هي أنا لا زلت أكتبها كي أحيا بها وأحيي ذكرها، وبدل أن أشكو للبشر والحجر وجدت هذا الطهر العارم بالنقاء والحبر القاتم بثوب بيت الله هو الحل الوحيد كي أنجو بها وبنفسي من فزاعة الفناء التي يخشاها كثير من الناس..
اهتزت تلك الأغصان بشدة، وبين الشدة والشدة تختفي الراحة، أيعقل أن يكون في هذا المكان حيوانات مفترسة !، أيعقل بأن يخرج لنا ديناصور ويلتهمنا من غير أن نعلم، الآن أنا في ضيافة هذا الملكوت الرائع وتتراقص مفاصلي من أجل حركة خافتة صادرة من بين الأغصان، تخرج من بينها أمرأة بسن ملائكة الله قد كسيت بالحرير كأنها شمس وعمينا من نورها، وما إن اقتربت حتى كشف عن تفاصيل ملامحها:

ـ خالتي.. !!

ـ أنت هنا !؟

ـ ما الذي تفعلينه هنا ؟

ـ أنا أبحث عن أختي.. !

ـ وهل يمة هنا يا ترى ؟

ـ إنه عالم البرزخ يا حبيبي، هنا يجتمع الأحبة.. !!

ـ كنت أتوقع أن تبحثي عن شخصا آخر غير يمة.. !!

ـ عن من مثلا.. !

ـ أمك أنت أو أختك الكبرى ؟

ـ لم يعد هناك وقت أو متسع من الشوق كي أبحث عن أحد غير أمك التي جردتني من راحة البال..

ـ الذي أريد أن أعرفه الآن كيف ارتديت هذه الثياب الحريرية ومن أين لك كل هذا النور ؟..

ـ إنها منزلة من منازل الشوق يعطيها الله للأخوات إن اشتاقت أحداهن للأخرى..

أمسكت بيدها، وسرنا معا:

ـ لعلنا نجدها ونحن في طريقنا إلى إلى ملكة عالم البرزخ..

ـ أتمنى ذلك يا خالتي..

فلسفة الإمساك والإفلات والقاسم المشترك بينهما وبين ما وصلت إليه من سن ثلاثيني، وجوه مكررة في آلة الزمان مرت من ها هنا، أدقق النظر جيدا بها حتى تخرق صدري، أشد وثاق الصبر على قلبي وأخذ نفسا عميقا وأهمس في جوفي:

ـ هل ما زال هناك أحد **!؟**..

نعم هناك كثير من التافهين المتفلسفين الذين اتبعت نصائحهم حبا لهم من غير أن أدقق في نوع النصيحة لأن التعلق بهم في كل مكان وزمان نوع من أنواع العمى..

كنت أعمى ذو طراز رفيع المستوى..

رفيع أنتقي تلك الوجوه القذرة التي آذتني كلما خطرت على بالي وقلبي، وجوه مددت لها كف قلبي على طبق من ذهب، ولكن نجساتهم ترعرعت على حب الذات حتى فقدت الثقة..

أنا تعلت درسا قاسيا في حياتي، فكل وجه من تلك الوجوه لقنتني درسا قاسيا وبعد كل درس كانت تأتني صفعة كي أصحو من سكرتني وأعتني بنفسي أكثر وأكثر، نجوت من هاوية التعلق بالآخرين عندما شب الشيب على شاربي وأطراف رأسي..

أنا اليوم لم أعد أثق بالسماء ولا بالفضاء لأنها مخلوقة، سرت على درب السراب والضباب من غير آن آبه لكل خطوة، وجدتني أخرس نفسي شيئا فشيئا، ظلمتها كثيرا لنفسي حتى

أوجعتني بعد أن يذهب مفعول المخدر الذي أخدع به بعد كل صداقة كاذبة..

كنت أبحث عن الحب، عن الدرب، عن السلام، عن مشاعر صادقة، عن كف دافئة، عن الله..

خانتني الأمنيات الخافتة والأكف الجائرة وبت أتساءل هل أنا كنت أحمق بالفعل !، نعم كنت أحمق وأكثر من ذلك، لأن قلبي لا يعرف ينتقي أحبابه..

الأحباب أضحوا أشباح يتناوبون عليك بين كل فترة وفترة ينتقون الأوقات الجميلة التي تختلي بها بنفسك كي يقولوا لك أنهم في أحشاءك يتعاركون ويقتتلون كي يجتثوا سعادتك ويطحنوا ذاك الفرح الذي رسمته لك يمة..

يمة..

ولأنني أعرف يمة فلن يضيعني قلبي أبدا بعد اليوم..

يهبط من السماء طائر من ذهب، كنت ولا زلت أكره الذهب لأنه من مشتقات الوداع والرحيل..

ذهب، ويذهب، وذهب..

طائر بحجم طائرة من حديد تنقل أكثر من عشرين راكبا..

تسقط قلوبنا من الخوف، يضحك الرجل الصالح، وبين مزاح وجد اروح أصرخ في وجهه:

ـ لماذا تضحك.. !!

كنت وقحا إلى حد ما، إلى حد أنني لم أعد أثق بالصالحين ومدعين الصالح مذ أن سحبت يمة من هذه الدنيا، وحدها من كان ثوبها صالحا وطاهرا وغيرها من بشر متلونين بالصالح كلهم مدعين للصالح:

ـ هون عليك يا بني.. !!

أمسكت خالتي بدي، كانت ترتجف من هذا الرعب الذي جردنا من الطمأنينة، وكنت أتمسك بها كي لا يغمى عليها، ريح تنبع من تحت جناحاه، ريح أشهى من عبق الريحان، غرابة جملت المكان بعد أن آذيت الرجل الصالح:

ـ بني إن هناك دعوة ابن، فتراكمت هذه الدعوات حتى صنعت منها طائرا يحملها أينما اتجهت.. !!

ـ ونحن ما هي علاقتنا..

ـ نحن نجونا من المشي إليها سيرا على يابسة الحب..

ـ وماذا سوف نفعل الآن.. !

سوف نركب هذا الطائر كي يصلنا إليها.. !!

ـ من أرسله ؟..

ـ لقد عرفت السلطنة بأن لديها ضيوف، فأمرت أن نحضر إليها من غير تعب ولا عتب..

ركبنا وتمسكنا وحلق بنا الوجد في فضاء البرزخ، جنون ما بعده جنون، جنون ملبس بجنون وقشعريرة تسري تحت بساط الجلد كلما حلق أكثر وأرتفع، إنه برزخ الآمان الذي يخافه الناس المتوحشة التي أتعبت قلوبنا وهم يحذروننا من عقاب الله..

بعد ثلاثين عام من الخوف..

أكتشف بأن الخوف هو شبح صنعه هؤلاء الناس الذي جردوا الخلق من الراحة وجعلوهم تحت مصيدة مصالحهم، زرعوا وروعوا وهددوا وأخافوا الناس من الله كي يملؤوا الجيوب والأرصدة..

يا أخي فنانين بكل المقاييس في ارتكاب العنف الفكري وترويع الناس والتشجيع على إهدار الوقت في زلزلة القلوب وجعل دس السم فيها..

فيها نحن الآن نسير على ظهر طير ركب من دعوة..

ندعو الله أن ينجينا من هذا الخوف، وما إن تنتهي دعواتنا حتى يهبط بنا في فناء قصر من ماس ولؤلؤ مرخم بالجواهر الكريمة والياقوت، وأزهار وروح وريحان ورب راض غير غضبان:

ـ لقد وصلنا.. !!

ـ أنت قلت أربعة وأربعين عام..

ـ ولكن السلطانة أرسلت براق بأمر يفني الأعوام والزمان والمكان، فهذه مكرمة من السلطانة لضيوفها..

وتلاشى الرجل الصالح وتبخر حتى خشينا على أنفسنا..

خرجت من البوابة ألسنة من نور، وتمددت حتى أضحت ذرات النور تتضاحك، وبدا وجه السلطانة:

ـ يمة..

اختلج الصدر برؤياها، أنكبت الجبهة لملقاها، وراحت شفتاي تتراقصان تقبيلا وتهليلا وتحميدا، احتضنت الأخت أختها كأنه عرس وزفه وجمال منحوت على جبين السماء:

ـ ما هذه المرتبة التي وصلتي إليها يا أختي..

أجابت السلطانة وليتدفق من فاها عنبر معتق كأن غبار العطر يفعل من روحه زوبعة:

ـ بدعوة ابن لا ينسى..

شعرت بأنني أهوي حيث المكان الذي جأت به منه..

إنه سريري، ومنبهي، ووسادتي، وأنا أتلمس على ذاتي..

سعادة تنتابني بسبب دعوة أكررها كل ساعة:

ربي أغفر لي ولوالدي وأرحمهما كما ربياني صغيرا..

أتممت رواية:

يمة

في بلد الحرية والديمقراطية : النمسا، في عاصمة البيانو والكمنجة : فيينا..

مع صوت الوجع ونزف الفراق ولقاء الحبيب بالحبيبة..

في منزلي الأخضر، في الحي السابع..

الساعة : 00 : 12 . في الثلث الثاني من شوق الليل.

من تاريخ : 11 / أكتوبر / 2018.